رياض أخلاق الصالحين



الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥مـ



دار الرسالة

داغستان – محج قلعة

شارع عزيز علي ٢

الإدارة الدينية لمسلمي داغستان

هاتف ٨٥-٤١-٦٣ فاكس ٧٧-٦٤-٦٣

رِيَاضُ أَخْلَاقِ الصَّالِحِينَ

أَلَّفَهُ

الشَّيخ أحمد بن محمَّد عبد الله

مُفتِي دَاغِستَان

دَارُ الرِّسَالَةِ
دَاغستَان - مَحَج قلعة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدِّمة :

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيّد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واتّبعه إلى يوم الدين أما بعد :

فإنّ الأخلاق هي عماد هذا الدين وجوهره المتين ، وباستقامتها تستقيم الأُمَم ، وبانحلالها حلولُ المصائب والغُمَم[١] ، ولما كان صلاح الأمّة يبدأ بصلاح الفرد ، كان لِزاماً على كلّ عاقل طالَبٍ صلاحَ أمّته أن ينظر في أخلاقه ويعمل على إصلاح ما فسد منها .

وإن من ينظر في زماننا هذا يرى ما انتشر فيه من آفة وأمراض سرت إلى أخلاق البشر فكادت تحلّ عرى الإيمان وأوشكت الفضيلة أن تموت في القلوب ومن هنا كانت الحاجة ماسّة إلى جمع كتاب يحيي موات الأخلاق في قلوب العباد ، ويبعث الهمّة على تصحيح السلوك وتزكية النفوس وتحليتها بالقيِّم والفضائل النبيلة .

نسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب ويجعله سببًا من جملة الأسباب ، إنه سميع قريب مجيب الدعاء ، والحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم .

---

(١) الغمم جمع غمّة وهي المصيبة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول : النفس وصلتها بالأخلاق الإنسانية

الفصل الأول : حقيقة النفس

اعلم أَنَّ النفسَ لطيفة[١] ربَّانية ، وهي الرُّوح قبل تعلّقها بالأجساد ، فلما أمرها الحق أن تتعلق بالأجساد عرفت الأغيار[٢] فحُجِبَت عن حضرة[٣] الحق بسبب شُغلها عنه تعالى .

ومن المعلوم أن الروح الإنسانيَّ كريم الجوهر ، فقد خُلِقَ من نفخ الملك ، أخبر بذلك رسول الله ﷺ حين قال : « إن أحدكم يُجمع خَلْقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون عَلَقة مثل ذلك ثم يكون مُضْغة مثل ذلك ، ثم يُرسَل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمَر بأربعِ كلمات : بكتب رِزْقه وأجله وعمله وشقيٌّ أم سعيد » وبعد ارتباط هذه الروح بالبدن يتكوَّن المخلوق العجيب المسمَّى بالإنسان ، الذي جعله الله خليفة في الارض ليَعْمُرَها ، وأرسل الشرائع كلها لحفظ هذه النفس البشرية ورعايتها ، وإنّ العلم والأخلاق هما الأصلان اللذان يبنى عليهما كمال نفس الإنسان .

ولما كان المكلف المخاطَب من الإنسان هو نفسه ، و لأنَّ صلاح الإنسان وفساده إنما يقاسان بصلاح نفسه وفسادها ؛ كان تكميل النفس الإنسانية هو أعظم مقصود من إنزال الكتب وإرسال الرسل وشرع الشرائع .

إنَّ النفوس بما فيها من شهوة ، وبما فطرت عليه من غفلة ، وبما عرضتْ له من شؤون الحياة ، وبما سُلِّط عليها من قرناء السوء ، من شياطين الإنس والجن ؛ لا تزال في مقارفة الذنب ، فيجب إصلاحها بإزالة النقص الذي يحدثه الذنب فيها ، وإبعاد ضرره عنها ، وهذا لا يكون إلا بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى .

---

(١) اللطيف هو الخفيُّ الذي لا يمكن أن يُدرك بكيفية .
(٢) الأغيار جمع غير ، وهي كل ما سوى الله تعالى .
(٣) الحضرة هي القرب .

النفس عدوّ الإنسان الأول :

إن النفس مجبولةٌ على سوء الأدب ، والعبد مأمورٌ بملازمة الأدب ، فالنفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة ، فهي العدو الملازم للإنسان ، قال ﷺ : « أَعْدى عَدُوِّك نفسُك التي بين جَنْبَيْك » ، ولذلك فإن من أطلق العَنان[١] لنفسه في شهواتها وملذّاتها كان شريكاً لها في فسادها .

وحين تيقّظ أهل الله إلى هذه الحقيقة ، نبّهوا عباد الله إلى أنَّ الأساس والأصل في كل معصية وغفلة وشهوة وشرك إنما هو الرضا عن هذه النفس ، وأصل كل طاعة ويقظة وعفّة عن المحرّمات هو عدم الرضا عنها ، فقليل من العمل مع شهود المنَّة لله تعالى خير من كثير من العمل مع رؤية التقصير من النفس ، لأن شهود التقصير لا يخلو من الشرك في التقدير[٢] .

وإن العبد العاقل الذي عرف حقيقة نفسه ، ورأى ذلّها وفقرها و ضعفها وعجزها ومصيرها الآيل إلى الفناء ؛ عَرَف ربّه وخالقه بالعزّ والبقاء والقدرة والعظمة والكبرياء ، لأنه هو الذي خلق هذه النفس وسوّاها من العدم .

وحين خاطب الله تعالى أولياءه ودعاهم إلى حضرته ، نبّههم على أيسر الطرق وأقربها ، وهو طريق معاداة النفس ومخالفتها ، فقد قال الله تعالى لبعض أوليائه في المنام : عادِ نفسك فليس لِي من المملكة منازِعٌ غيرَها ؛ أي لأنها تطلب ما هو له تعالى : كالكبرياء والعظَمة وانقياد الناس وطاعتهم لها ، وهذه الصفات لا تجوز إلا للخالق العظيم سبحانه .

درجات النفس البشرية :

وليست النفس على درجة واحدة ، بل تتنوّع نفوس البشر على درجات متفاوتة بحسب قرب أصحابها من الله تعالى وبعدهم عنه ، فهناك النفس

(١) أطلق لها العَنان = تركها تسير كما تحب وتهوى .
(٢) لعل المراد أنه أثبت لنفسه نسبة في تقدير هذا العمل .

الأمّارة بالسوء ؛ وهي التي تأمر أصحابها بالمعاصي والغفلات مرة بعد مرة ، وهي التي قال عنها سيد الطائفة وإمامها الجنيد ﷺ : النفس الأمارة بالسوء هي الداعية إلى المهالك المُعينة للأعداء ، وإنما يريد بالأعداءِ الدنيا والشيطانَ اللذين يزيّنان لابن آدم المعصيةَ ويحسّنانها في نظره .

وتليها في الدرجة **النفسُ اللوّامة** ؛ وهي التي تلوم صاحبها على فعله للمعصية بعد أن يقع فيها ، وتليها في الرتبة **النفس الملهِمة** ، وهي التي تلهم صاحبها الخير وتدعوه إليه ، **ثم النفس الراضية** ، وهي التي رضيتْ بحكم الله تعالى وسلطانه فأسلمت له تسليماً كاملاً في كل ما يريد ويختار ، **ثم النفس المَرْضِيَّة** ، وهي التي نالتْ رضا الله سبحانه وتعالى ، وفي هذه المرتبة يضع السالك القدم الأولى في معرفة الله تعالى حق معرفته .

الفصل الثاني : تزكية النفس

اعلم أن للنفس حُجُبا نورانية وحُجُبا ظُلْمانية ، وسبيل المريد للوصول إلى تخلُّص النفس من الحجب إنما يكون بتقديم مجاهدتها ومخالفتها ، وأصل المجاهدة ومِلاكها فَطْمُ النفس عن المألوفات ، وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات .

ولا تَظُنَّ أنَّ تزكية النفس تتيسر بطريق العقل كما ظنَّتْ الفلاسفة ؛ فإن تزكية النفوس كمعالجة الأبدان ، فكما لا يجوز للمريض استعمال الأدوية إلا بنظر طبيب حاذِقٍ ذي تجربة في المعالجة ؛ كذلك تزكية النفس لا تتيسر إلا بنظر نبيٍّ أو وليٍّ ذي تجربة بهذا الشأن ، ولا رجاء لإصلاحها إلا بإصلاح القلب الذي هو كالمَلِك ، ولا تَصْلُحُ الرعيّة إلا إذا صَلُحَ المَلِكُ .

وفي الحقيقة : فإن أمرَ النفس وعلاجَها أمرٌ عَسيرٌ لا يمكن بمرة واحدة ، بل بالتكرار مرة بعد أخرى ، و هي تشبه الدّابة الحَرون التي لا تنقاد إلا باللِّجام .

المفاتيح الثلاثة لتزكية النفس :

وإنما تذل النفس وتنقاد بثلاثة أشياء :

منها منع شهواتها ؛ فإن الدَّابة الحَرون إنَّما تلين إذا نَقَص علفها ، وكذلك النفس تذلّ إن مُنِعتْ ممّا تشتهي .

والثاني حَمْلُ أثقال الطاعات ؛ لأنَّ الدابة الحرون إذا قُلِّلَ علفُها وزِيدَ في حِمْلها ذَلَّت وصَغُرتْ وضَعُفَت قوتها وانقادت وأطاعت ، فكذلك النفس .

والثالث أن تستعين عليها بالله عز وجل وتتضرَّع إليه أن يعينك عليها ؛ لأنه هو الذي خلقها وهو تعالى أدرى بها وبأحوالها .

واعلم أنّ الله تعالى قد أخبرنا وبيّن لنا سبيلَ مجاهدة النفس وطريق تزكيتها ، ولو أنَّ طبيباً كافراً أخبرك في ألذّ أطعمتك بأنَّه يضرُّك في مرضك لَصبرتَ عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه ، أفكان قول الأنبياء المؤيَّدين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه المنزلة أقلَّ عندك تأثيراً من قول طبيبٍ كافرٍ يخبرك عن تخمينٍ وظنٍّ ونقصانِ عقلٍ وقُصورِ علم ؟ ! فياليت شعري أَأَلَمُ الصبر عن الشهواتِ أعظم شدةً وأطولُ مدة أو ألَم النار في دركات جهنم ؟ !

مخالفة النفس :

واعلم يا ولدي أن في مخالفة الإنسان لنفسه خيراً كثيراً ، وفي موافقتها واتِّباعها مفتاحُ كل الشرور ، ويكفيك في هذا إجماع العقلاء في كل العصور على أن مخالفة النفس هي مفتاح كل خير ، وأن الأصل في كل شر اتّباع هواها والانقياد له .

وقد عدّ العلماء مخالفة النفس رأس العبادة ، وعدّوا من مهمّات هذا الطريق ذبح النفس بسيوف المخالفة ، حتى قالوا : من دخل في مذهبنا هذا فليجعل في

نفسه أربع خصال من الموت : موت أحمر وموت أسود وموت أبيض وموت أخضر ، **فالموت الأحمر** مخالفة النفس وهواها ومجاهدة الدنيا وفتنتها ومحاربة إبليس وأعوانه ، ولعلّ حمرته إشارة إلى الشهوات والموت عنها ، **والموت الأسود** احتمال أذى الناس ، وسواده علامة على صعوبة ذلك وشدّته على النفس ، **والموت الأبيض** الجوع ، وبياضه إشارة إلى النور الذي يقذفه الجوع في الباطن ، **والموت الأخضر** طرح الرقاع بعضها على بعض ، وترك الثياب المستحسنة ، فكأنَّ عيشه اخضرّ بقناعته ورضاه بالقليل .

ولقد حكم الله تعالى وقضى بأن تسري بركة مخالفة النفس على كل عبدٍ خالف هواه ولو لم يكن من أهل الإسلام ، فقد حُكي أنَّ راهبا اشتَهر ببلاد مصر بالمكاشفة ، فقال عالم من المسلمين : لا بد من قتله خوفا على المسلمين أن يفتنهم ، فقصده بسكّين مسمومة ، فلما طرق بابه قال : اِطرحْ السكين يا عالم المسلمين ! فطرحها فدخل ، فقال : من أين لك نور المكاشفة ؟ قال : بمخالفة النفس ، فقال هل لك في الإسلام ؟ قال : نعم أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، قال : ما حَمَلَك على ذلك ؟ قال : عرضتُ الإسلام على نفسي فأبت فخالفتها ، فحصل له الخير العظيم بمخالفته لنفسه .

وإذا كانت المخالفة للنفس تُثمر الفَتْحَ والقَبول ، فإن موافقتها في شهواتها والسيرَ معها في هواها لا يثمر إلا الخذلان والتأخير[١] عياذاً بالله تعالى .

حكي أن إبراهيم بن شيبان رحمه الله قال : كنت أشتهي في أوقات أن أتناول شُبعة عدس ، فلم يتفق[٢] فكنت مرة بالشام فحملت إلي غَضارَة[٣] فيها عدس فتناولت منه ، وخرجت فرأيت قوارير معلّقة فيها شيء شبه نموذجات فظننته خلاً ، فقيل لي : أَيْش[٤] تنظر ؟ هذه النموذجات خمر وهذه الدنانُ خمر ،

(١) التأخير هو التأخر في السير والبطء فيه .
(٢) لم يتفق أي : لم يتيسّر .
(٣) الغضارة هي الآنية المصنوعة من الطين .
(٤) أيش كلمة تعني أيَّ شيء .

فدخلت حانوت الخمّار ولم أزل أصب تلك الدنان وهو يتوهَّم أني أصبها بأمر السلطان ، فلما علم حملني إلى ابن طُولُون[١] ، فأمر بضربي مائتي خشبة ، وطرحني في السجن ، فبقيت فيه مدة ، حتى دخل ذلك البلدَ أستاذي أبو عبد الله المغربيُّ ، فشفع لي ، فلما وقع بصره علي قال : أَيْش فعلت ؟ فقلت : اشتهيتُ شبعة عدس فأكلتها فعوقبتُ بمائتي خشبة ، فقال : نجوتَ مجاناً أي خرجتَ لا لكَ ولا عليك !

و رؤي رجلٌ جالساً في الهواء فسئل عن سبب ذلك ؛ فقال : تركت الهوى فسخر لي الهواء !

محاسبة النفس :

وإنَّ من أعظم الطرق الموصلة إلى صلاح النفس وتزكيتها طريق محاسبة النفس على كل ما تحدّث وتأمر به صاحبها ، فإنه إذا كان لك وكيل يحاسب نفسه فأنت لا تحاسبه لمحاسبته نفسه ، وإن كان وكيلا غير مُحاسِبٍ لنفسه فأنت تحاسبه وتبالغ في محاسبته ، فعلى هذا ينبغي أن يكون عملكً كله لله تعالى ولا ترى أنك تفعل فعلا والله تعالى لا يحاسبك .

وقد كان هذا الطريق دأبَ الأكابر الذين وصلوا إلى الله تعالى ، فقد أخبر الشيخ مكين الدين الأسمر ﭬ وكان من السبعة الأبدال قال : كنت في ابتداء أمري أخيط وأتقوَّت من ذلك ، وكنت أعدُّ كلامي بالنهار ، فإذا جاء المساء حاسبت نفسي فأجد كلامي قليلا فما وجدت فيه من خير حمدت الله وشكرته عليه وما وجدت فيه من غير ذلك تبت إلى الله واستغفرته ، إلى أن صار بَدَلا .

وقال أبو حفص الحدّاد النيسابوري ﵀ : النفس ظلمة كلها ، وسراجها سِرُّها ، ونور سراجها التوفيق ، ومعنى قوله : سراجها سرّها ، يريد سرّ العبد الذي بينه وبين الله تعالى ، وهو محلُّ إخلاصه ، وبه يعترف العبد أن الحادثات

(١) ابن طولون = اسم أمير ذلك البلد .

بالله لا بنفسه ، ولا من نفسه ، ليكون متبرئاً من حوله وقوته على استدامة أوقاته ، ثم بالتوفيق يعتصم من شرور نفسه(١) ، ومن هنا قال الشيوخ : من لم يكن له سِرٌّ فهو مُصِرّ .

ومن أعظم ما يعين العبد على محاسبة نفسه ، تنبيهها بالموعظة وتذكيرها بمآلها وعاقبتها كي تستقيم ، وقد وعظ أحد الصادقين نفسه فقال : يا نفس : أما تنظرين إلى الذين مضوا قبلك كيف بَنَوا وعَلَّوا ، ثم ذهبوا وخَلَّوا ، وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم ، أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون ، ويبنون ما لا يسكنون ، ويؤمِّلون ما لا يدركون ، يا نفس : ما أعجب أمرك ، كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية ؟ ! ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها ، أما تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب إليك ، فاحسبي أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا واحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك وسيأتي زمان لا يبقى ذكرك ، فكيف يا نفس تبيعين ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة ؟ ! يا نفس : أما تستحين ! تُزَيِّنين ظاهرك للخلق وتبارزين الله في السر بالعظائم ، ويحك أهو أهون الناظرين إليك ؟ ! ويحك يا نفس ، لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس لا يصيبهم بلاء إلا بشؤمك ، والعجب كل العجب أن تفرحي بزيادة مالك ولا تحزني بنقصان عمرك ، وما فائدة مال يزيد مع عمر ينقص ؟ !

---

(١) المعنى : إن نفس العبد كلها ظلمة ، وسراجها هو ذلك السر الذي يكون بين العبد وربه حين يتبرأ العبد من حوله وقوته ويقرّ لله تعالى بذنبه وضعفه ، ومتى اعترف العبد بهذا لربه في سرِّه أتاه من الله تعالى توفيق يحميه به من شر نفسه ، فمدار الأمر على السر الذي يعترف به العبد لربه بالضعف ، ثم على التوفيق الذي يُمدّ الله به العبد .

مجاهدة النفس :

وللنفس صفتان مانعتان لها من الخير : انهماكٌ في الشهوات ، وامتناعٌ عن الطاعات ، وإذا ثارت النفسُ عند غضبها فما من منازلة[١] أحسن عاقبة من غضب يُكسَر سلطانُه بِخُلُقٍ حسن ، وتُخمَد نيرانه برفق ، فإذا اسْتَحْلتْ النفسُ شرابَ الرعونة فمن الواجب كسر ذلك عليها ، وإذلالها بعقوبة تذكِّرها حقارةَ قدرِها وخساسة أصلها ، وقذارة فعلها .

قال ذو النون ﷶ : إنما دخل الفساد من ستة أشياء : **الأول** ضعف النية بعمل الآخرة ، **والثاني** : صارت أبدانهم رهينة لشهواتهم ، **والثالث** : غلبهم طول الأمل مع قرب الأجل ، **والرابع** : آثروا رضا المخلوقين على رضا الخالق ، **والخامس** : اتبعوا أهواءهم ونبذوا سنة نبيهم ﷺ وراء ظهورهم ، **والسادس** : جعلوا قليل زلات السلف حجةً لأنفسهم ودفنوا كثير مناقبهم[٢] .

ولمجاهدة النفس صور كثيرة عدّها الأكابر في كتبهم ، وها نحن ننقل لك بعضاً مما قالوه في هذا الشأن ليكون تبصرة لطالب الخير والرضوان :

١ .قال بعض العارفين : ما أخذنا التصوف من القيل والقال ، ولكن من الجوع وترك الدنيا ، وقطع المألوفات ، وامتثال الأوامر واجتناب المنهيات .

٢ . وسئل بعض الحكماء بأي قيد تُقَيَّد النفسُ ؟ قال : قَيِّدْها بالجوع والعطش ، وذَلِّلْها بإخماد العزِّ وإطفاءِ الشهوة ، واكْسِرْها بترك زِيِّ الأغنياء

٣ . وحكي عن أبي يزيد ﷶ قال : رأيت رب العزة في المنام فقلت له : يا رب كيف الطريق إليك ؟ فقال : خلِّ نفسك وتعالَ .

---

(١) المنازلة = المبارزة .
(٢) كالاحتجاج بالخلاف الحاصل بين علي ومعاوية رضي الله عنهما وإغفال مناقبهما الطيبة رضي الله عنهما .

٤ . وقال أحد المشايخ : بني هذا الأمر على ثلاثة أشياء : أن لا تأكل إلا عند الفاقة ، ولا تنام إلا عند الغلبة ، ولا تتكلم إلا عند الضرورة .

٥ . وقال أستاذ لتلميذه : دخلت الآفة[1] من ثلاثة : سقم الطبيعة ، وملازمة العادة ، وفساد الصحبة . فسأله تلميذه : ما سقم الطبيعة ؟ فقال أكل الحرام ،فقال التلميذ : وما ملازمة العادة ؟ فقال : النظر والاستمتاع بالحرام والغيبة ، فقال : فما فساد الصحبة ؟ قال : كلما هاجت في النفس شهوة تبعتها !

٦ . وقال أحد العلماء : الواجب أن لا ننتقم لأنفسنا من المسيء ، بل نعتذر إليه ونتواضع له ، وإذا وقع في قلوبنا حقارة لأحد قمنا بخدمته والإحسان إليه حتى تزول .

و الحاصل : أنَّ من كرمت عليه نفسه هان عليه دينه ، ومن كرُم عليه دينه هانتْ عليه نفسه ، وجهد العوام في توفية الأعمال ، وجهد الخواص في تصفية الأحوال ، فإنَّ مقاساة الجوع والسهر سهل يسير ، ومعالجة الأخلاق والتنقي من سفسافها صعب شديد .

الرضا عن النفس :

ومن عرف النفس وخسَّة أخلاقها لا يرى على وجه الأرض أحداً أشرَّ منه ولا أقبح ، ثم إنه لا شيء أوجب على العبد من المعرفة بنفسه ، ويلزم من ذلك عدم الرضا عنها ، وبقدر تَحقُّق العبد في معرفة نفسه يصلح له حاله ويعلو مقامه .

إنَّ تربية النفوس تكون بالتخلية من الرذائل والتحلية بالفضائل ، والعُجب هو أساس الرذائل ، فأول الترك تركه ؛ وهو المانع من اكتساب الفضائل ، فشرط وجود الفضائل تركه ، ومن لم يكن معجباً بنفسه كان بمَدْرَجَة التخلّق

---

(١) الآفة = هي كل ما يصيب شيئا فيفسده .

بمحاسن الأخلاق والتنزه عن نقائصها ؛ لأن الانسان مجبول على حب الكمال وكراهة النقص ، فإذا سلم من العجب فإن تلك الجِبِلَّة تدعوه إلى ذلك التخلّق و التَنَزُّه ، فإذا نُبِّه على نقصه لم تأخذه العِزّة ، وإذا رُغِّب في الكمال كانت له إليه هزَّة ، فلا يزال بين التذكيرات الإلهية والجبلّة الإنسانية الخُلُقية ، يتهذّب ويتشذّب ، حتى يبلغ ما قدّر له من الكمال .

ومن المعلوم أن من غوامض آفات النفس ركونها إلى استحلاء المدح و أمارة ذلك : أنه إذا انقطع عنها ذلك الشِّرْب[1] آل حالها إلى الكسل والفشل .

وإن الرضا عن النفس والإعجاب بها هو بريد مقت الله تعالى وسخطه ، فقد سئل ابن عطاء رحمه الله عن أقرب شيء إلى مقت الله تعالى فقال : رؤية النفس وأحوالها ، وأشد من ذلك انتظار الأعواض على أفعالها ، وإنما يرى عيوب نفسه مَن يتهمها في جميع الأحوال ، وتالله ما أعزَّ الله عبداً بعزّ هو أعزّ له من أن يَدُلَّه على ذل نفسه ، وما أذل الله عبداً بذل هو أذل له من أن يحجبه عن ذل نفسه .

وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه ؟ ! والكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام يقول : ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ « يوسف ٥٣ » .

قال أهل التفسير : أي لا أنزِّهها عن السوء من حيث هي هي ، ولا أسند هذه الفضيلة إليها بمقتضى طبعها من غير توفيق من الله تعالى ، ﴿إِنَّ النَّفْسَ﴾ أي : جميع النفوس التي من جملتها نفسي في حد ذاتها : ﴿ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ أي : تأمر بالقبائح والمعاصي ؛ لأنها أشد استلذاذاً بالباطل والشهوات ، وأميل إلى أنواع المنكرات ، ولولا ذلك لما صارت نفوس أكثر الخلق مُسخَّرة لشهواتهم في استنباط الحيل لقضاء الشهوة ، وما صدرت منها الشرور ، ومن هٰهنا وجب

(١) الشِّرب = منبع الماء .

القول بأن كل من كان أوفر عقلا وأجل قدرا عند الله كان أبصر بعيوب نفسه ، ومن كان أبصر بعيوبها كان أعظم اتهاما لنفسه وأقل إعجابا .

و جاء في « التأويلات النجمية » : خلقت النفس على جِبِلَّة الأمَّارية بالسوء طبعا حين خُلِّيَتْ إلى طبعها لا يأتي منها إلا الشر ، ولا تأمر إلا بالسوء ، ولكن إذا رحمها ربها ونظر إليها بنظر العناية يقلِّبها من طبعها ، ويبدِّل صفاتها ، ويجعل أمَّاريتها مبدَّلة بالمأمورية ، وشريرتها بالخيرية ، ولذا قال ﷺ : « رَبِّ لا تَكِلْني الى نفسي طَرْفَةَ عين ولا أقل من ذلك » .

وصيّة جليلة :

ومما أوصى به سيدنا الإمام بهاء الدين محمد النقشبندي ﹶقُدِّسَ سِرُّهُ للسالك كما في « البهجة » هاتان الوصيتان ؛ وهما من أنفس الوصايا لمن تدبّر وتأمّل :

أولهما : أنه لو وصل إلى أيِّ محلٍّ وصل ، لا يرى نفسه إلا في أوَّل قدم من الطريق .

وثانيهما : أنه لو نال من السلوك أعلى المراتب لا يرى نفسه إلا أقلَّ من نفس فرعون مائة مرة !

فليتفقد العاقل نفسه ولو كان في الاطمئنان ، ولا يثقْ بدسائسها ، فأنَّى يحترز منها أمثالنا القائمون على متن الأنانيّة وحبّ الرياسة ؟ ! والله وليّ التوفيق .

وإننا في حقيقة الأمر لا نستطيع أن نخرج من النفس بالنفس ، إلا إن حفَّتنا العناية الربانية ، ولا شكَّ أن الأخلاق المذمومة هي التي تجرُّ صاحبها إلى ارتكاب الفسق والعصيان ، وهي داءٌ والطريقة دواءٌ ، وهي نجاسات معنوية والطريقة كالماء ، فناسب أن يستعمل الماء على موضع النجاسة ، والله تعالى أعلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الفصل الثالث : التوبة

اعلم أنَّ أول المقامات هو التوبة ، ولا يُقبل ما بعدها إلا بها ، فإن ظفرت بها فقد أحبك الله لقوله تعالى :﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴾ « البقرة ٢٢٢ » أي يُثِيب وَيُكْرِم التوابين من الذنوب ﴿وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴾ من الأقذار ، ويقال التوّابين من الزلة ، والمتطهّرين من الغفلة ، ولقوله تعالى : ﴿لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ « الحجرات ١١ » قال العلماء : الظَّالِمُونَ بوضع العصيان موضع الطاعة ، وتعريض النفس للعذاب .

وفي « التأويلات النجمية » : ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ﴾ يعني : من مقالة إبليس وفعاله ؛ بأن ينظر الى نفسه بالعُجْب والى غيره بالحقارة ، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ : فيكونون منخرطين في سلك اللعنة والطرد مع إبليس كما قال تعالى : ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ « هود ١٨ »

وفيه دلالة بينة على أن الرجل بترك التوبة يدخل مدخل الظَّلَمة ، فلا بد من توبة نصوح من جميع القبائح والمعاصي لا سيما ما ذكر في هذا المقام .

وإذا وقع من العبد ذنب وقع معه ظلمة ، فمثال المعصية كالنار ، والظُّلْمة دخانها ، كمن أوقد في بيت سبعين سنة ألا تراه يَسْوَدُّ ؟ كذلك القلب يَسْوَدُّ بالمعصية فلا يطهر إلا بالتوبة إلى الله تعالى .

واعلم أن المعصية تتضمن آثارا ظاهرة وباطنة ، أما الآثار الباطنة فكالقساوة في القلب ومعاندة النفس ، وضيق الصدر بالشهوات[١] ، وفقدان حلاوة الطاعات ، و كثرة المشاغل التي تمنعه من التقرّب إلى مولاه ، وأن يصير عبداً لهوى نفسه .

---

(١) فيصير قلب العاصي قاسيا لا يلين لذكر الله ولا يرقّ لموعظة ، وتعانده نفسه فلا تستجيب له حين يأمرها بطاعة ، ويمتلئ صدره بالشهوات حتى يضيق بها .

ولو لم يكن في المعصية إلا تبدل الاسم لكان ذلك كافيا ، فإنك إذا كنت طائعا تسمى بالمحسن ، وإذا كنت عاصيا انتقل اسمك إلى المسيء المُعْرِض عن الله تعالى ، هذا في تبدل الاسم ، فكيف بانتقال الأثر من تبدل حلاوة الطاعة بحلاوة المعصية ، ولذاذة الخدمة بلذاذة الشهوة ، فالقلب شجرة تسقى بماء الطاعة وثمراتها مواجيدها(١) ، فالعين ثمرتها الاعتبار ، والأذن ثمرتها الاستماع للقرآن واللسان ثمرته الذكر واليدان والرجلان ثمرتهما السعي في الخيرات فإذا جف القلب سقطت ثمراته .

من هنا كان من أهمّ المهمّات إصلاح النفس بمعالجتها بالتوبة الصادقة ، ولذلك قال ﷺ : « أَخْوَفُ ما أخاف على أمتي اتباع الهوى وطول الأمل ، فأما اتباع الهوى فَيَصُدُّ عن الحق ، وأما طول الأمل فينسي الآخرة »

ويجب على التائب دوام الانكسار وملازمة الاستغفار كما قالوا : التوبة استشعار الوجل إلى الأجل ، وأول ما يبدأ به التائب بعد التوبة إسقاط مظالم العباد وحقوقهم عن ذمته بالأداء أو الإبراء ، فإن عجز عن ذلك يكون أبدا عازما على إيصال ذلك الحق إلى مستحقه متى قدر عليه ، ولا يزال يدعو لصاحب الحق إل ؛ى أن يوفيه حقه أو يبرئه منه ،

(١) أي : ما يجده القلب بعد الطاعة من آثار تظهر في الجوارح .

الباب الثاني : الأخلاق المذمومة

الفصل الأول : الحقد والحسد

الفصل الثاني : الكِبر

الفصل الثالث : حبّ الجاه

الفصل الرابع : الغضب

الفصل الخامس : الغيبة والنميمة

الفصل السادس : حب الدنيا

الفصل الأول : الحسد والحقد

حقيقة الحسد والحقد وثمراته :

فأما الحسد : فحقيقته أن يكره نعمة الله تعالى على أخيه فيحب زوالها عنه ، وهو من قبيح الخصال ، وأما الحقد : فهو الانطواء على العداوة والبغضاء والتقاطع .

و الحاسد إنسانٌ ظالم غشوم لا يبقي ولا يذر ، ونبّه النبي المصطفى ﷺ على أن أصل كل الخطايا يرجع إلى أصول ثلاثة عدّ منها الحسد ، فقال ﷺ : « ثلاث هُنَّ أصل كل خطيئة فاتقوهن واحذروهن : إياكم والكبر ، فإن إبليس حمله الكبر على أن لا يسجد لآدم عليه السلام ، وإياكم والحرص ، فإن آدم عليه السلام حمله الحرص على أن أكل من الشجرة ، وإياكم والحسد ، فإن ابني آدم إنما قتل أحدهما صاحبه حسداً » .

وقيل أوحى الله تعالى إلى سليمان بن داوود عليه السلام : « لا تغتابنّ صالح عبادي ، ولا تحسدنّ أحداً من عبادي »

وروي عن بعض الصالحين قوله : إذا أراد الله أن يسلط على عبد عدوا لا يرحمه سلط عليه حاسده .

وإن الحسد يحلق الدين ويمحو أثره من قلب صاحبه ، لما يورثه في القلب من ظُلمة وحجاب ، كما قال ﷺ : « دَبَّ إليكم داءُ الأمم من قبلكم ، الحسد والبغضاء ، هي الحالقة ، ليس حالقة الشعر لكن حالقة الدين » ولذا قال بعض العارفين : ثلاثة لا تستجاب دعوتهم : آكل الحرام ، ومكثر الغيبة ، ومن كان في قلبه غل أو حسد للمسلمين ؛ ولعلّ الحكمة في ذلك كونه ساخطاً على قسمة الله تعالى على عباده .

كيفية التعامل مع الحاسد :

لقد نبّهَنا الصحابة ﭫإلى حقيقة الحاسد وأنه إنسان لا يمكن إرضاؤه ، فقال معاوية ﭬ : كل إنسان أقدر على أن أرضيه ، إلا الحاسد ، فإنه لا يرضيه إلا زوال النعمة ، ونُسِب إلى الإمام الشافعي ﬗ قوله :

كل العداوة قد ترجى إماتتها   إلا عداوة من عاداك من حسد

ونصحَنا العقلاء بأن لا نتعنَّى في طلب رضا من يحسدنا ؛ لأن ذلك ضَرْبٌ من ضروب المحال ، فقالوا : إياك أن تتَعَنَّى في مودة من يحسدك ، فإنه لا يقبل إحسانك ، وإذا أردت أن تسلم منه فلبّس عليه أمرك ، ولا تظهر له فرحك ولا نعمتك .

الفصل الثاني : الكبر

منشأ الكِبر :

إنَّ حب الانسان لنفسه غريزة طبيعية ، وذلك يحمله على الإعجاب والفرح بها ، ومن الإعجاب بها ينشأ الكِبر والتعالي[1] على عباد الله ، والنظر إليهم بعين الاحتقار والاستصغار ، ومن احتقر الناس لم ير لهم حقا ، ولم يعتقد لهم حرمة ، ولم يراقب فيهم إلًّا ولا ذمة[2] ، وكان عليهم أظلم الظالمين .

الكبر أهلك إبليس :

وإبليس كان هلاكه من عجبه بنفسه وأنه خلق من النار وأنه خير من آدم فتكبر عليه ، ولذلك كان من أقوى علامات السلب للعبد كونه لا يعجبه أحد من أهل بلده ، لا من علماء ولا من صالحين ، فإنه بذلك يُحرم بركة الخلق أجمعين ، ولا يصل إليه من أحد منهم مدد ، ومصداق ذلك قول الإنسان :

---

(١) التعالي = الاستعلاء على عباد الله .
(٢) إلا ولا ذمّة أي عهدا ولا ميثاقاً .

ما بقي أحد يعمل بعلمه ، ولا بقي أحد من الصالحين في هذه البلد ، وما شابه هذا الكلام ؛ وذلك لأن صفاته هي التي تجلَّت له في الناس ، نسأل الله العافية ، وصدق من قال : لا ينقص الإخوانَ إلا كل ناقص .

عِلاج الكِبر :

ولما كانت هذه العلة ناشئة عن العجب ، أعقب الله عز وجل ذكرها في القرآن الكريم بذكر الدواء الذي يقلعها من أصلها ، وذِكْرُ الإنسان ضعفه وعجزه أنجع دواء لمرض إعجابه بنفسه ، قال تعالى ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا[١] إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ « الإسراء ٣٧ »

والمراد النهي عن المشي بالتكبر والتعظم ، وقوله : ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ الإسراء : ٧٣ ؛ أي لن تجعل فيها خرقا ونقبا بشدة وطأتك ، ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ الإسراء : ٧٣ : أي بتطاولك ، فالمراد به هو الطول المتكلف الذي يتكلفه المختال وهو تهكُّم[٢] بالمتكبر ، وتعليل للنهي بأن التكبر حماقة مجرَّدة ، ولن ينال الإنسان بكبره وتعظُّمه شيئا من الفائدة ، وهو أي الكبر عاشر الخصال العشر[٣] فان المشية بالخيلاء من الكبر ، وفي الحديث « من تَعَظَّم فى نفسه واختال فى مشيته لقي الله وهو عليه غضبان » .

---

(١) تقول العرب : أمرح الفرس إذا شبع وأخذ يمشي بخفة واختيال ، ويقال : مرح الرجل ، ولا يكون ذلك إلا لفرحه بنفسه وإعجابه بها .

(٢) التهكّم : هو السخرية والاستهزاء .

(٣) الخصال العشر هي الخصال التي نهى عنها الله تعالى في سورة الإسراء ، وتبدأ من قوله تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ =

الفصل الثالث : حبّ الجاه

حقيقة حب الجاه :

اعلم أيها الهُمام ؛ أنَّ النفس الأمَّارة الإنسانية مجبولةٌ على حبِّ الجاه والرياسة ، وجميعُ همَّتِها الترفُّعُ على الأقران ، ومُتَمنَّاها بالذات أن يكون الخلائق كلُّهم محتاجين ومنقادين إلى أوامرها ونواهيها ، ولا تريد أن تكون محتاجة إلى الغير ، وهذه كلُّها هي دعوى الألوهية منها ، والشركة مع خالقها ، فإن لم تُنِلها إلى متمناها تصيرُ في مثابة الكلب العقور ؛ تؤذي مَن لاقاه .

عِلاج حب الجاه :

وِاعلم أيها الأخ المخلص أن اللازم لأمثالنا اختيارُ الذل والافتقار ، والتضرُّع والالتجاء إلى الحق والانكسار دائماً ، وأداء وظائف العبودية ، والمحافظة على حدود الشريعة ، ومتابعة السنَّة السنيَّة على صاحبها الصلاةُ والسلام والتحية ، وتصحيح النيات في تحصيل الخيرات ، وتخليصُ البواطن وتسليم الظواهر ، ورؤية العيوب ، ومشاهدة استيلاء الذنوب ، وكراهة الشهرة وقبول الخلق ، قال ﷺ : « بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يُشَارَ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ فِي دِينٍ أَوْ دُنْيَا ؛ إِلاَّ مَنْ عَصَمَهُ الله تَعَالَى » ، وقد قال مولانا الإمام ابن مشيش قدس سره : احفظ قلبك من إرادة الدنيا وحب النساء وحب الجاه وإيثار الشهوات واقنع من ذلك كله بما قسم الله تعالى لك .

= وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا (٣٩) ﴾

ولا تخدعنّك النفس بحيلتها وتوهمك بأَنَّ حبك للجاه إنما هو لنُصرة هذا الدين وإعلاء كلمته ، فإن أَمْر الدين إلى الله تعالى ينصره ويعلي شأنه ، وقد تولى سبحانه ذلك وتكفّل به ، قال تعالى :﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ « التوبة ٣٢ » أي يريد الظالمون أن يطفئوا شرع الله وبراهينه الدالة على عظيم قدرته ، بأقوالهم في هذا الدين ، ولكن الله تعالى يأبى إلا أن يظهر نور هذا الشرع الحكيم ولو كره الكافرون ذلك .

الفصل الرابع : الغضب

منشأ الغضب :

اعلم يا ولدي أن الناس يغضبون لحجابهم عن كون الله تعالى هو الفاعل لكل ما برز في الوجود وشهودهم الفعل من جنسهم .

ثم إن للنفس صفتين ذاتيتين تولَّدتا من بطن الأم ، **أَحَدُهُمَا** : الهوى ، **والأخرى** : الغضب ، فمن صفةِ الهوى يتولَّد الحرصُ ، و الشهوة ، والطمعُ ، وطولُ الأمل ، وحبُّ الدنيا ، وأمثالُها ، ومن صفة الغضب يتولَّد الكبر ، والعجب ، والعداوة ، والحسد ، والحقد ، وأمثالها من الأخلاق القبيحة ، وهاتان الصفتان لازمتان للنفس تحفظانها ، وذلك أنَّ صفة الهوى تجلب المنافع ، والغضب تدفع الأضرار ، وتخلُّصُ النفس بإزالتهما بالكلية منها يورث النقص ، ولا يحصِّل الكمال ، وإنَّ غَلَبَةَ الصفتين ؛ تورث الضرر والنقص في العقل والإيمان ، فتربية النفس لإيراث الاعتدال بين الطرفين من قانون الطريقة الأحمدية قدس الله أسرار أهاليها ، لما أنَّ بالتربية تتبدَّل الأوصاف الذميمة بالأخلاق الحميدة ؛ كتبدُّل الهوى بالمحبَّة الإلهية ، والشهوةِ بالعِفَّة ، والحِرْص بالغَيْرَة ، وباقيها بأمثالها .

تصوّر الأعمال على صورٍ شتى :

ثم إن جميع أفعال وأعمال الإنسان وأخلاقه مركوزةٌ في النفس ، ومكنوزة في القلب ، وكلُّها عبارة عن قوى الباطن ، وتظهر في عالم البرزخ على أمثال صور مختلفة وأشكال شتَّى ، فإذا كان كذلك ؛ لزم معرفة أشكالها ؛ أيُّها نورانيّ ، وأيُّها ظلمانيّ ! ومعرفة ذلك يكون بهذا الوجه :

وذلك أنَّه إن غلب في أحدٍ العشق والمحبَّة ، يظهرُ له في الرؤيا خيال على هيئة الذكر والتسبيح ، والتفاح ، والعنب ،والأشربة اللذيذة ، والبطيخ ، والعبادة ، والطاعة وأمثالها من الصدق ، والإخلاص ، والتقوى ، والجواهر ، والحور ، والغلمان وأمثالها من الأشكال .

وإن غلبت الشهوة ؛ أو القوَّة الغضبية ؛ يظهر ويتصوَّر له في الرؤيا تمثال الخنزير ، والثعبان ، والثور ، والحيَّة وأمثالها .

وإن غلبت صفة الكبر ؛ فيظهر تمثال الأسد ، والنمر ، والفهد ، وأمثالها .

وإن غلب الحرص والبخل ؛ فيظهر بصورة العقرب ، والعنكبوت ، وأمثالها . وتخييل هذه الصور ورؤيتها يكون في الرؤيا ؛ أو في الواقعة .

ومع ذلك إن السالك يرى في الرؤيا الأشياء في الابتداء كأنه يخاصم السبع والحيوانات والهوام ويقاتل معها ، فأولاً مع الكبار ، ثم بالصغار كالذباب والبعوض ، وهذه دليلٌ على محاربته للنفس ، وقتلها بالرياضة ابتداءً يقتل أضرَّها من الكبير ثم الصغير .

ما يجب فعله عند الغضب :

إن الواجب على العبد أن لا يخرج بالغضب عن الحق والصدق ، وأن يتبع توجيه النبي ﷺ حين قال : « إذا غضب أحدكم فليسكت » .

وعليه بالوضوء فإن الغضب نار ولا يطفئ النار إلا الماء ، أخبر بذلك رسول الله ﷺ .

وليحذر أن يسوقه غضبه إلى ما لا يُحمد ، أو يخرجه عن الحق والعدل ، وليحفظ قول النبي ﷺ : « ثَلاَثٌ مُنْجِيَاتٌ ، وَثَلاَثٌ مُهْلِكَاتٌ ؛ فَأَمَّا المُنْجِيَاتُ : فَهِيَ التَّقْوَى فِي السِّرِّ وَالعَلاَنِيَةِ ، وَكَلِمَةُ الحَقِّ فِي الرِّضَا وَالغَضَبِ ، وَالقَصْدُ فِي الغِنَى وَالفَقْرِ . وَأَمَّا المُهْلِكَاتُ : فَشُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوَىً مُتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ المَرْءِ بِرَأْيِهِ » وفي رواية : « بِنَفْسِهِ » .

والحاصل أنه يجب على العباد أن يتخلّقوا بأخلاق الله تعالى كما قال ﷺ : « تخلَّقوا بأخلاق الله » ، بأن لا يغضبوا لأنفسهم ، ولا ينتقموا لها كما أن الله تعالى ، لا يغضب لذاته عزوجل ولو غضب لها لأهلك كل الخلق في طرفة عين .

الفصل الخامس : الغيبة والنميمة

حقيقة الغيبة والنميمة :

اعلم وفقك الله تعالى أن النبي ﷺ قال : « الغيبة ذكرك أخاك بما يكره » فقيل يا رسول الله أرأيتَ إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه[١] » .

أما النميمة فهي نقل الكلام بين الناس بقصد إيقاع الفتنة بينهم ، وقد حذّر منها الشرع الحنيف تحذيراً عظيماً ، حيث قال ﷺ : « إن أبغضكم إلى الله عز وجل المشَّاؤون بالنميمة المفرِّقون بين الإخوان » .

خطر الغيبة والنميمة :

إن الغيبة والنميمة من الصفات الذمائم ، وهي نجاسات معنوية ، لا يمكن التقرب بها إلى حضرة القدس الإلهية ، كما لا يمكن التقرب بالنجاسات

(١) بهتَّه = أي : أتيت بالبهتان وهو الكذب العظيم وهو أعظم وزراً من الغيبة .

الصورية في العبادات ، فلابد للسالك أن يزكي نفسه من جميعها بالاجتناب عنها حتى ينال الفوز والفلاح عند الله كما قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ « الشمس ٩ » ، أي لقد أفلح من زكّى اللهُ عز وجل نفسه .

إن الغيبة والنميمة من أخطر العوائق التي تعيق المريد وتسدّ في طريقه منافذ الخير وتغلق أبواب القبول أمامه ، فقد أكّد العلماء أنه لا شيء أسرع من مقت المريد وإحباط عمله من نظره في عيوب الناس ، وإطلاق لسانه فيهم بالغيبة ، والاستهزاء بهم ، وحذّروا أتباعهم من إشاعة زلات الإخوان ، احتقاراً لهم ، فربما كانت تلك الزلة التي وقعت منهم إنما قدرها الله تعالى عليه ليسدَّ بها ثلمة حدثت في دينهم من عجب أو كبر فيكون بها كمالهم من حيث أثرها ، ويؤيد ذلك قول ابن عطاء الله قدس الله سره : **معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا** .

قيل في الغيبة والنميمة :

وقد نُقل عن أهل الله كلامٌ نفيس في بيان ضرر الغيبة وخطرها ، وتقبيح شأنها في عيون السالك ، ليكون منها على حذر ، ويتجنّبها لما فيها من ضرر ، وها نحن ننقل لك بعضاً مما قيل في الغيبة ليتذكّر الغافل ويتعلّم الجاهل :

١ . قال ﷺ : « بِحسْبِ امرئ من الشر أن يَحْقِر أخاه المسلم ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ » .

٢ . وقال ﷺ : « إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا ، فإن الرجل قد يزني ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه » .

٣ . وقال ﷺ : « لا يدخل الجنةَ نمَّام » .

٤ . وقال ﷺ : « ألا أخبركم بشر عباد الله ؟ قالوا بلى ، قال : المشَّاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون للبَرا ء العيب » .

٥ . وقال ﷺ : « من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له » .

٦ . وقال ﷺ : « ليس للفاسق غيبة » .

٧ . وقال أحد الصالحين : مثل الذين يغتابون الناس كمن نصب منجنيقا يرمي به حسناته شرقا وغربا .

٨ . وسئل الثوري رحمه الله عن قوله ﷺ : « إن الله يبغض أهل البيت اللحميِّين » ؛ فقال : هم الذين يغتابون الناس ويأكلون لحومهم .

٩ . وقيل للحسن البصري رحمه الله إن فلانا اغتابك فأرسل إليه بطبق حلوى وقال : بلغني أنك أهديت إليَّ حسناتك فكافأتك بقدر الإمكان .

١٠ . وذُكرت الغيبة عند ابن المبارك رحمه الله فقال : لو كنت مغتاباً لاغتبت والديّ لأنهما أحق الناس بحسناتي !

١١ . وقال الإمام ابن عطاء الله قدس سره : إذا أردت أن تختبر عقل الرجل فانظر إليه إذا ذكرت له شخصا ، فإن وجدته يطوف على محل سوء حتى يقول لك خَلِّنا منه ، ذاك فعل كذا وكذا فاعلم أن باطنه خراب ، وليس له معرفة ، فإن المؤمن يعمل على سلامة عرض أخيه المؤمن .

١٢ . وقال الشاعر العربي :

جِراحاتُ السِّنانِ لها الْتِئامُ ولا يَلْتامُ ما جَرَحَ اللِّسانُ

ما يجب فعله مع الغيبة :

واعلم أن من ابتلي بوقوعه في الغيبة لزمه أن يقرأ الفاتحة وسورة الإخلاص والمعوذتين ويهدي ثوابها لذلك الشخص ، فقد رأى أحد الصالحين رسول الله ﷺ في المنام وأخبره بذلك ، وقال إن الغيبة والثواب يقفان بين يدي الله تعالى يوم القيامة ونرجو أن يكون ذلك بذلك .

ولا ينبغي للعاقل أن يتكدّر للغيبة فيه ، فإن من اغتيب بغيبة غفر الله له بها نصف ذنوبه ، ويجدر بالسالك أن لا يجالس من يرى محاسن نفسه وينكر على القوم ويغتابهم ، فإنه امرؤ باطنه خراب كما أخبر بذلك الصالحون .

ومن اغتيب أمامه أحد من إخوانه لزمه أن ينصره ويدافع عنه في غيابه ، وإلا فإن السكوت مع سماع الغيبة خذلان لأخيه المسلم ، وحق المسلم على المسلم أن يجيب عن إخوانه الغائبين إذا ذكروا بسوء ، قال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله : ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال : إن لم تنفعه فلا تضره ، وإن لم تسرَّه فلا تغمّه ، وإن لم تمدحه فلا تذمّه .

حكي عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله أنه دعي إلى طعام فلما جلس قالوا : إن فلانا لم يجئ ، فقال رجل منهم : إنه ثقيل لا يقدر المسارعة في المشي ، فخرج إبراهيم رحمه الله من بينهم ولم يأكل ثلاثة أيام شيئا ، ثم قال : ما شهدت مكانا اغتيب فيه المؤمن .

ومرة أضاف قوما فلما قصدوا إلى الطعام أخذوا في الغيبة فقال لهم : إن أقواما قبلنا كانوا يأكلون الخبز قبل اللحم وأنتم تأكلون اللحم قبل الخبز ، ولم يأكل معهم .

وقد كان دأب الصالحين أن يجيبوا عن إخوانهم إن اغتيبوا ولا يمكنوا أحداً من الطعن فيهم ما وجدوا لأفعالهم محملا ، فإن سمعوا أحدا يقول عن أحد من العلماء أو الفقراء : فلان كبير النفس لأنه لا يجيب أحدا إلى المشي في زفة ؛ كانوا يقولون : إنما يمتنع من فعل ذلك إزراء بنفسه أو لشدة حيائه .

إنّ أهل السعادة إذا رأوا إنسانا على معصيته أنكروا عليه في الظاهر ، ودعوا له في الباطن ، وأهل الشقاوة ينكرون عليه تشفيا فيه ، وربما ثلموا عليه عرضه ، فالمؤمن من كان ناصحا لأخيه في الخلوة ساترا له في الجلوة ، وليس العكس .

الفصل السادس : حب الدنيا

الدنيا عدوّة الإنسان :

اعلم أن حب الدنيا مذموم في كل الشرائع ، وهو رأس كل خطيئة ، وسبب كل فتنة ، فعلى العبد أن يزهد في الدنيا وأن يخرج من قلبه حب الجاه ، فإن حب الجاه أضر على صاحبه من حب المال وهما دالان على حب الدنيا وهي عدوة للإنسان ، ويكفي في بيان نتنها ما ورد في أنه لما أهبط الله آدم وحواء عليهما السلام إلى الأرض ووجدا رائحة الدنيا وفقدا رائحة الجنة ، غشي عليهما أربعين صباحا من نتن الدنيا ، وقد روي أن الله تعالى قال للدنيا حين خلقها : يا دنيا من خدمني فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه .

وحيث أطلق اسم نعيم الدنيا فالمراد منه المال والطعام والكلام والمنام ، فإياك أيها المريد أن تشغل قلبك بشيء من الملاذ الفانية ، فإنها كالشعر النابت في القلب ، وإذا نبتت شعرة واحدة في القلب مات صاحبه لوقته ، ولذلك جعل الله تعالى محل الشعر ظاهر جلد الإنسان دون باطنه ، ومن هنا تفهم حكمة دخول المؤمنين الجنة جُرْدا مُرْدا مكحَّلين على قلب رجل واحد ، أي لأنه لو نبت على أجسادهم الشعر لماتوا ، لأنهم كلهم قلوب جسما وروحا لا حجاب لهم عن ربهم ، فعلم أن كل مريد أحب الدنيا فالله يكرهه على قدر محبته لها كثرة وقلة .

وإن كل شيء يشغلك عن الله فهو دنيا ، وكل شيء يعينك على التوجه إلى الله فهو اخرى ، وفي الحديث قال ﷺ : « إن الله لم يخلق خلقا أبغض إليه من الدنيا ، وإنه مُذْ خلقها لم ينظر إليها » ، وقال ﷺ : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه » .

العبادة مع حب الدنيا تعب جوارح :

وقد كان الإمام أبو الحسن الشاذلي قدس سره يقول : لا يصح لعبد مجالسة الحق جل وعلا في الدنيا والآخرة وهو يميل إلى شيء من الكونين ، فإنه لا يجالس الله إلا عبد الله ، وأما غيره فهو مجالس لما أحب من الأكوان لا يرقى عن ذلك .

وقد روي عن الشيخ أبي الحسن علي بن المزين ﷺ أنه قال : لو زَكَّيْتم رجلا حتى جعلتموه صدِّيقا لا يعبأ الله به وهو يساكن الدنيا بقلبه ، والله ما هلك من هلك من أهل الطريق إلا من حلاوة الغنى في نفوسهم .

وقال الإمام الشاذلي ﷺ : العبادة مع الدنيا شُغْل قلب وتعب جوارح ، وهي صورة بلا روح ، وحقيقة الزهد في الدنيا ترك الميل إليها بالمحبة لا بِخُلُوِّ اليد من الدنيا(١) لعدم نهي الشارع عن التجارة وعن عمل الحرف .

التحذير من الافتتان بالدنيا :

كان رسول الله ﷺ يذكّر المؤمنين بالحقيقة التي لا يجوز أن تغيب عن عقولهم وقلوبهم ، وهي كونهم عابري سبيل في هذه الدنيا ، وفي هذا التذكير يمنعهم من الوقوع في شَرَك(٢) حبِّ الدنيا ، وكان يقول ﷺ : « كُنْ في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، واعْدُدْ نفسك في الموتى ، وإذا أصبحَتْ نفسك فلا تحدِّثْها بالمساء وإذا أَمْسَتْ فلا تحدِّثْها بالصباح ، وخُذْ من صحتك لسقمك ، ومن شبابك لهرمك ، ومن فراغك لشغلك ، ومن حياتك لوفاتك ، فإنك لا **تدري ما اسمك غدا** » .

وحين سئل الإمام الجنيد ﷺ : أيّ العلم أنفع ؟ قال : ما دلّك على الله تعالى ، وأبعدك عن نفسك ، والعلم النافع ما يدل صاحبه على التواضع ، وَدَوَامِ المجاهدة ، ورعاية السرِّ ، ومراقبة الظاهر ، والخوف من الله ، والإعراض عن الدنيا وعن طالبيها ، والتقلل منها ، ومجانبة أربابها ، وترك ما فيها لمن فيها من أهلها ، والنصيحة للخلق ، وحسن الخلق معهم ، ومجالسة الفقراء ، وتعظيم أولياء الله تعالى ، والإقبال على ما يعنيه .

وكان علي بن أبي طالب ﷺ يحذّر المؤمنين من طول الأمل واتباع الهوى ، لأنهما ثمرة حب الدنيا ، ويقول : إنما أخشى عليكم اثنين : طول الأمل ، واتباع الهوى ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا .

(١) ويلزم لكل سالك أن لا يغتر بهذا الكلام وأن يتفطن لحيل نفسه ومداخلها .
(٢) الشَّرَك هو المِصْيَدة التي يُصاد بها .

قالوا في الدنيا :

وقد أجاد العلماء والصالحون في بيان حقيقة الدنيا والتحذير من فتنتها ،وها نحن نسوق لك بعض أقوالهم الجامعة لكل خير :

١ . قال الإمام الجنيد ﵁ : من أصبح وهو يشكو ضيق المعاش فكأنما يشكو ربه ، ومن أصبح لأمور الدنيا حزينا فقد أصبح ساخطاً على الله تعالى ، ومن تواضع لغني لغناه فقد ذهب ثلثا دينه .

٢ . وقال أحد العلماء : من أرادُ الله تعالى أن يتخذه وليا كرّه إليه الدنيا .

٣ . وقيل : أبق لك أيها المريد شيئا من الدنيا يكفُّك عن سؤال الناس ولا تُسْرِفْ في ترك الدنيا بالكلية .

٤ . وقال أحد المشايخ : خصلتان إذا فعلهما العبد صار عن قريب إماماً يقتدي به الناس : الإعراض عن الدنيا ، واحتمال الأذى من الإخوان مع الإيثار .

٥ . وقال الإمام الشاذلي ﵁ : ولا يحبه الحق تعالى حتى يبغض الدنيا وأهلها ويزهد في نعيم الدارين .

٦ . وعنه ﵁ أنه قال : كل من أحب الدنيا فالله تعالى يكرهه ، فيجب على المريد أن يرمي الدنيا من يده ومن قلبه .

فاعلم يا ولدي بأن الدنيا ظل زائل ، وحاجز بين العبد ومولاه حائل ، لا يعد عبدا حقيقيا من كان في قلبه مثقال ذرة من حبها ، وليس بمقبول من لم يرمها بقشرها ولبّها .

الباب الثالث : الأخلاق المحمودة

الفصل الأول : العبودية :

حقيقة العبوديّة :

اعلم أن العبودية هي التبرُّؤُ من الحول والقوة ، والإقرار بما يعطيك المولى عز وجل ويُولِيك من الطَّول والمنة ، وهي معانقة ما أُمِرتَ به ، و مفارقة ما زُجرت عنه .

و مع أن عبارات العلماء اختلفت في بيان حقيقة العبودية ، لكنها كلها تتفق على معنى واحد ، وهو : **شهود الربوبية** ؛ لأن أوصاف العبودية مقابلة لأوصاف الربوبية على السواء ، فكل صفة استحقتها الألوهية طلبت العبودية وصفا مقابلا لها ، فإذا كان من صفاته تعالى القدرة ، فمن صفات العبد العجز ، وإذا كان من صفات الحق تعالى الكبرياء والعظمة فمن صفات العبد الذل والانكسار وهكذا .

وها نحن نسوق لك بعضاً مما عرّف به الأكابر عبوديّة العبد لله تعالى :

١ . قال عيسى عليه السلام : العبودية ترك الدعوى واحتمال البلوى وحب المولى .

٢ . وقال ذو النون قدس سره : العبودية أن تكون أنت عبده في كل حال ، كما أنه ربك في كل حال ، مِصْداقاً لقوله ﷺ : « ليس عبدٌ أكرمُ عند الله من عبْد عَبَدَ الله عز وجل على كل حال »

٣ . وقيل : العبودية إسقاط رؤية التعبد في مشاهدة المعبود .

٤ . وقيل :العبودية في أربع خصال : الوفاء بالعهود ، والحفظ للحدود ، والرضا بالموجود ، والصبر عن المفقود .

٥ .علامات العبودية :

إن للعبودية علامات ، ومن تلك العلامات ترك التدبير وشهود التقدير ، وأن العبد لا ينبغي أن يكون له مع الله تعالى اختيار .

حكي أن إبراهيم بن أدهم ﷺ اشترى عبدا فقال : أي شيء تأكل ؟ قال ما تطعمني ، فقال أي شيء تعمل ؟ فقال ما تستعملني ، قال أي شيء لك إرادة ؟ فقال وأين تبغي إرادة العبد في جنب إرادة سيده ؟ ثم أتى إبراهيم نفسه وقال يا مسكين ما كنت لله ساعة في عمرك مثل ما كان هذا لك في هذه الحالة !

وقد نصح الإمام علي الخوّاص ﷺ تلميذه الشعراني ﷺ بقوله : كُلْ مما يرسله الله تعالى إليك بقدْر حاجتك ، ولا تزد على ذلك وأعط ما زاد على حاجتك لمن أراد الله تعالى ، ولا تبذل جهدك في تدبير أمور نفسك ، واسأله أن يدبرك بأحسن التدبير ، فقال له الشعراني ﷺ : فهل أسأل أن يرزقني حلالا ؟ قال : نعم وقل : اللهم بارك لي فيه واسترني في الدنيا والآخرة يا جواد يا كريم ، ثم قال : إياك والجزع في مواطن الامتحان ، ومن سلَّم أمره إلى الله رزقه العلم والعمل حتى يكون إماما والله على كل شيء قدير .

ومن علامات العبودية أن لا يُرى على العبد أثر المَسْكَنَة في العدم ، ولا أثر الغنى في الوجود ، بل يستوي عنده كل حال ، وأن يضيّق على نفسه ويأخذها بالعزائم ، ويوسّع على الناس ، ولا يسكن إلى لذة ، ولا يطلبها ، كما قال العلماء : العبد عبدٌ مالم يطلب لنفسه خادماً ، فإذا طلب لنفسه خادماً فقد سقط عن حد العبودية وترك آدابها .

ومن آداب العبودية أن لا يجزع العبد من أربعة أشياء : من الجوع والعُرْي والفقر والذل ، وأن لا يرد من أحكامه تعالى شيئاً ، ولا يدَّخر عنه سبحانه شيئاً ، ولا يسأل غيره تعالى حاجة .

وقيل :الفقير كالسلطان مهابة وكالعبد الذليل تواضعا ومهانة ، ولا يكون الفقير فقيرا حتى يكون حمالا للأذى من جميع الخلائق إكراما لمن هم عبيده ، وكلما زاد علم العبد زاد افتقاره لربه وعلت همته . وقيل : لا يكن همك من العبادة إلا القرب من المعبود دون الأجر والثواب فإنه إذا منّ عليك بالدخول إلى حضرته فهنالك الأجور وأعلى منها ، ثم ينعم عليك حتى تكون أنت منعما على غيرك .

إن العبودية صفة للعبد لا تفارقه ؛ كما أن الربوبية نعت للحق سبحانه لا يزول عنه ، و كلُّ من لم يزدد بعلمه وعمله افتقارا لربه وتواضعا لخلقه فهو هالك ، ومن استغنى بماله فهو فقير ، ومن استغنى بجاهه فهو حقير ، ومن استغنى بعشيرته فهو ذليل ومن استغنى بحسناته فهو مفلس ، ومن استغنى بالله فهو الغني على الحقيقة .

أن نرى أنفسنا دون كل جليس :

إن العبادة هي نهاية الذل والخضوع مع الشعور بالضعف والافتقار وإظهار الانقياد والامتثال ودوام التضرع والسؤال ، وإنما يكون الذل بخنوع القلب وخضوعه وانكساره للضعف والافتقار ، وهذا الخنوع هو أساس العبادة القلبية .

وإن من تحقق برؤية نفسه دون كل جليس يجالسه ؛ صار الوجود كله في مرتبة الشيخ له ، إذ ما من شيء في الوجود إلا وقد جعل الحق فيه خصيصة لم تكن في غيره من سائر الوجود ، فينظر صاحب هذا المقام إلى تلك الخصيصة ويتخلق بها ، فيأخذ من جليسه العاصي مثلاً الذل والصبر تحت بلاء الله عز وجل ، حتى يزول البلاء ، ويأخذ من الكلب إذا جالسه احتمال الجفاء وعدم الادخار لشيء من متاع الدنيا سوى ملء بطنه ، وكثرة رضاه عن ربه في أكل الرِّمم(١) وهو منشرح الصدر ، ويأخذ منه حفظ

(١) الرِّمم هي العظام البالية .

الود لمن أحسن إليه ، ويأخذ من الحجر والخشب الصبر على قطعه من الجبل بالحديد ، ونَحْتِ أضلاعه[١] ثم جعله في أسفل جدار الأخلية[٢] ، ويأخذ من الحمار والجمل صبره على تحميله الأثقال ، وركوب صاحبها فوقه ، ويأخذ من الديك إذا جالسه كثرة استيقاظ قلبه وغيرته على عياله ، وعدم شح النفس عليهم ،ويأخذ من الشمعة والفتيلة كثرة تنويرها على من جالسها .وصبرها على عذاب نفسها بالنار لنفع جليسها .

ومن رأى نفسه دون كل جليس كان رفيقاً لرسول الله ﷺ **ومن فوائد** التحقق لهذا العهد[٣] عدم رد الجواب المؤذي لمن كلمنا بكلام يغيظ ، **ومن فوائده** أيضا التسليم للخلق في سائر ما يدّعونه من مراتب الكمال فأسرار خلقه لا يطلع عليها إلا هو تعالى ، ثم من أعطاها من الخلق ، فإذا أخبرنا إنسان عن سر نفسه صدقنا ، وكان تكذيبنا له نفاقا بل هو رأس النفاق .

وقد نصح الإمام أفضل الدين قدس سره للإمام الشعراني قدس سره حين قال له : إذا دخلت محفلا أو لعيادة مريض من الأكابر فإياك والجلوس في صدر المجلس ولو كان خاليا ، لأنه ربما دخل أحد من الأكابر فأقاموك وأخجلوك ، فتخجل وتتحرك النفس ، فاعلم هذا واعمل به وما هذا إلا من باب رؤية النفس دون كل من تجالسه .

تبرئة النفس والإنكار على الخلق مُنافٍ للعبودية :

واعلم يا أخي أن من علامة جهل الفقير بنفسه تبرّيه من وصف نسب إليه ، سواء أكان من صفات المدح أو من صفات الذم ، ولو عرف نفسه لعلم أن سائر الصفات المحمودة والمذمومة التي في سائر عصاة المسلمين وصالحيهم تغرب وتشرق فيه ، فإنه فلكٌ لجريانها ، ففيه من صفات الخير إلى الطرف الأقصى ومن صفات الشر إلى الطرف الأقصى .

---

(١) النّحتُ هو التقطيع على شكل معيّن ، والأضلاع هي الأطراف .
(٢) الأخلية جمع خلاء .
(٣) العهد هو رؤية النفس دون كل جليس .

واعلم أن سائر الصفات المتفرقة في الخلق حتى المذمومة موجودة في كل عبد بتمامها وكمالها إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإن الله تعالى طهر طينتهم ، وأما غير الأنبياء من سائر الأولياء والمؤمنين فلم يحصل لهم كمال طهارة الطينة ، وإنما عطل الحق فيهم صفات الشر عن الاستعمال ، فما دامت العناية تحف العبد فالصفات المحمودة كلها في العبد مستعملة والمذمومة معطلة عن الاستعمال ، وإذا تخلفت عنه العناية الإلهية تعطلت المحمودة عن الاستعمال وتحركت المذمومة فيقول الناس عند رؤيته : اللهم اكفنا السوء ، وانظروا إلى ظلمة وجهه .

ولو فهم العبد هذه الحقيقة لما أنكر على عبد من عباد الله ما يفعله الله به في واقع الأمر وحقيقته ، وقد أخبر الشيخ عبد القادر الدشطوطي ﷺ قال : أنكرتُ مرة على إنسان لا يطمئن في ركوعه ولا في سجوده[١] ، فقال لي : يا أخي أنا ناصيتي بيد الله تعالى يَمُدُّني إذا شاء ويَقْصُرني إذا شاء ، وأنا مشاهد للمحرك لا للحركة ، ثم قال الشيخ : لا تنكر قط إلا ما يهدم الدين .

أنت عبدٌ لما يشغل قلبك :

المرء عبدٌ لما غلب عليه واستولى على قلبه ، فإن كان العبد في أسر نفسه فهو عبد نفسه ، وإن كان في أسر دنياه فهو عبد لدنياه ، ولا ريب أن عبادة المريد مع محبته للدنيا شغل قلب ، وتعب جوارح ، فهي وإن كثرت قليلة عند الله تعالى ، وهي أشباح خالية من الأرواح ، ولهذا ترى كثيرا من أبناء الدنيا يقومون الليل كثيرا ، فإذا كان كثرة العبادة مع محبة الدنيا لا ترقّي صاحبها فكيف بمحبة الدنيا مع قلة العمل وارتكاب شيء من المعاصي ، روي أن أبا رزين ﷺ رأى رجلاً فقال له ما حرفتك ؟ فقال خِرْبِنْدَة أي خادم الحمار فقال له : أمات الله حمارك لتكون عبد الله لا عبد الحمار .

---

(١) لعل المراد من قوله : (لا يطمئن) أي : لا يأتي بحدّ الكمال من الاطمئنان وليس المراد ترك الواجب منه .

ولما جاء عَدِيٌّ بن حاتم رضي الله عنه النبي ﷺ وسمعه يقرأ قوله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال عدي : يا رسول الله إنهم لم يكونوا يعبدونهم ! قال : أليس إذا حرَّموا عليهم شيئا حرموه ، وإذا أحلوا لهم شيئا أحلوه ؟ قال بلى ، قال ﷺ : « فتلك عبادتهم إياهم » . فالمؤمن الموحد لا تكون طاعته إلا لله تعالى أو لمن طاعته طاعة لله تعالى ، وإن قيمة العابد بمعبوده ، كما أن شرف العارف بمعروفه .

الدعاء هو العبادة :

وفيه تظهر حقيقة العبودية ويلوح جوهرها المضيء ؛ لأن العبد في حالة الدعاء يظهر من نفسه منتهى الضعف والعجز والافتقار ، وينتظر من مولاه غاية الكرم والجود والعطاء ، وقد تقدّم أن العبودية هي التبرؤ من الحول والقوة والاقرار للمولى بالمنّة والعطيّة .

قال ﷺ : « الدعاء مُخُّ العبادة » وفي رواية : « الدعاء هو العبادة » فلخّص العبادة وجعل الدعاءَ زُبدتها ؛ لأن حقيقة العبادة هي التذلل والخضوع وهو حاصل في الدعاء غاية الحصول وظاهر فيه أشد الظهور .

الصفات المنافية للعبودية :

واعلم أن الصفات المانعة لصاحبها من دخول حضرة الله عز وجل حتى في صلاته هي أربعة أقسام : ربانية وشيطانية وبهيمية وسبعية :

فالرَّبَّانية التشبه بصفات الحق تعالى التي نهى عباده عن التخلق بها مطلقا : على سبيل العلو وطلب الرفعة كالتعاظم والتكبر والعز والغنى والقهر والاستيلاء على العباد بغير حق ورؤية نفسه على أحد من المسلمين

والشيطانية : التشبه بصفات الشيطان : كالحسد والبغي وكثرة الحيل والخداع والغش والنفاق والميل إلى أهل البدع والضلال

والبهيمية : كالشَّرَه والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ، ومن ذلك يتشعب الوقوع في الزنا والسرقة

والسَّبُعية هي الغضب بغير حق والحقد ومنها يتشعب الوقوع في قتل النفس التي حرمها الله والضرب والأذى

وأول ما يستولي على الإنسان الصفات البهيمية ، وإذا كبر وتزايد فهمه دخلت عليه السبعية ، فإذا قويت فكرته ولم يوفقه الله تعالى استعمل عقله في المكر والخداع ، واستعان بالشيطان فإذا استعان بالشيطان أدخل عليه صفات الربوبية .

فمن تخلّق بخلق واحد من أخلاق الشيطان أخرجه الحق من حضرته ، ومن أخرجه من حضرته سلّط عليه أعداءه ، وكأنّ لسان الحق يقول لإبليس وجنوده : ليس لكم على أهل حضرتي سبيل ، ولكن كل من خرج من حضرتي فعليكم به !

قال تعالى : ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ « الإسراء ٦٣ـ٦٤ »

إن في هذا غاية التهديد ، وبيان قوله تعالى : ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ ، أي بحملهم على كسب الأموال من الحرام وصرفها في الحرام ،وفي الأولاد بالتوصّل إليهم بالأسباب المحرمة ، و أما قوله تعالى : ﴿وَعِدْهُمْ ﴾ الإسراء : ٤٦ أي المواعيدَ الباطلة ، ثم قال تعالى : ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ النساء : ٠٢١ : يعنى وهو تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب ، وقد روي في الحديث : « إن إبليس لما أنزل إلى الأرض قال يا رب أنزلتني الأرض وجعلتني رجيما فاجعل لي بيتا ، قال : الحمّام[1] قال : فاجعل لي مجلسا ،

(١) الحمّام = بيت الخلاء .

قال الأسواق ومجامع الطُّرُق(١) ، قال : اجعل لي طعاما ، قال : ما لم يذكر اسم الله عليه ، قال : فاجعل لي شرابا ، قال : كل مسكر ، قال : فاجعل لي مؤذنا ، قال : المزامير ، قال : فاجعل لى قرآنا ، قال : الشعر ، قال : فاجعل لي كتابا ، قال : الوشم(٢) ، قال : فاجعل لي حديثا ، قال : الكذب ، قال : فاجعل لي رُسُلا ، قال : الكهنة(٣) ، قال : فاجعل لي مصائد ، قال : النساء » .

ثمرات العبودية :

تحققْ بضعفك يمدُّك بقوته وحوله ، تحققْ بفقرك يمدُّك بغناه . فإن من ثبت له الفقر الأكبر ثبت له الغنى الأكبر . ووجه الحيلة أن لا تكون للعبد حيلة حتى لا يركن إلى شيء سوى مولاه (٤) ، فمن تحقق بأوصاف العبودية يمده بأوصاف الربوبية ، لا سيما إذا لازم الذكر الذي هو مغناطيس العبودية ، فيستوحش أن يسمى بالعبد في الحضرة الإلهية فيمده بأوصاف الربوبية . وأدنى ذلك شهادة إسراع اللطف من اللطيف ، لأن مَن لازم العبودية والافتقار والاضطراب والاحتياج أسرعت إليه المواهب . فمن أراد أن تُسرع إليه المواهب فليتحقق بالفقر ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾التوبة : ٦٠ ، فأرباب النهايات كلما ازدادوا نعمة ازدادوا عبودية ، وكلما ازدادوا دينا ازدادوا قربا ، وكلما ازدادوا جاها ورفعة ازدادوا تواضعا وذلة ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، وكلما تناولوا شهوة من شهوات النفوس استخرجت عنهم شكرا صافيا ، يتناولون الشهوات تارة رفقا بالنفوس لأنها معهم كالطفل الذي يلطف بالشيء ويهدى له شيء ، لأنه مقهور تحت السياسة ملطوف به ، وتارة يمنعون نفوسهم الشهوات تأسيا بالأنبياء واختيارهم التقلل من الشهوات الدنيوية .

(١) مجامع الطرق = مكان اجتماع الناس في الطرقات .
(٢) الوشم = الوشم هو ما يكون من غرز الإبرة في البدن وذرّ مادة عليها يَزْرَقّ منها الجلد أو يَخْضَرّ .
(٣) الكهنة = جمع كاهن وهو المنجّم وهو من يدّعي علم الغيب .
(٤) لعل المراد أنه لا ملجأ للعبد ولا منجا له من الله تعالى إلا إليه .

الفصل الثاني : الرضا والتسليم والتفويض

حقيقة الرضا والتسليم والتفويض :

اعلم أن الرضا هو أن لا تعترض على الحكم والقضاء ، وليس أن لا تحسَّ بالبلاء ، واعلم أن الواجب على العبد أن يرضى بالقضاء الذي أُمِرَ بالرضا به ، إذ ليس كل ما هو بقضاء الله تعالى يجوز للعبد أو يجب عليه الرضا به ، كالمعاصي ، و الرضا إخراج الكراهية من القلب حتى لا يكون فيه إلا فرح وسرور ، وهو سكون القلب إلى أحكامه تعالى ، وموافقته بما رضي الله به واختاره له ، ومن علاماته : ترك الاختيار قبل القضاء ، وفِقدان المَرارة بعد القضاء ، وهَيَجَان الحب في ضمن البلاء ، وإنما ينال حلاوة الإيمان من رضي بالله ربا ، ولا ينالُه من كان للدنيا في قلبه مقدار ، والرضا على قسمين : رضا به تعالى ورضا عنه سبحانه ، فالرضا به أن يرضاه مدبّرا ، والرضا عنه فيما يقضي .

إن الراضي بالله تعالى هو الذي لا يعترض على تقديره ، و من اتكل على حسن اختيار الله تعالى له حقيقة لم يتمنّ غير ما اختاره الله عز وجل له .

أما التفويض والتسليم فهما ترك الاختيار ، فالتسليم والإسلام والاستسلام كلمات تدل على معنى واحد وهو الانقياد وإظهار العبودية ، والتفويض هو أن لا يختار العبد شيئا من أمور دنياه ويكل اختيار ذلك إلى مولاه ، ثم لا يختار خلاف ما يختار له ، وقيل التفويض يكون قبل نزول القضاء والتسليم بعده ، والتسليم والتفويض من صفات أهل المعرفة .

فضل الرضا بقضاء الله :

إن الرضا هو سرور القلب بمرّ القضا ، ولذلك كان أجر الراضي بقضاء الله تعالى أجراً عظيما ، فقد روي أنه ينادي منادٍ يوم القيامة فيقول : أين صفوتي

من عبيدي ؟ فتقول الملائكة : مَن صفوتك من عبيدك ؟ فيقول : القانعون بِعَطايَ والرَّاضون بِقَضايَ .

وقال ﷺ : « قال الله تعالى لموسى عليه السلام : لن تتقرب إلي بشيء أحب إليَّ من الرضا بقضائي »

وقد أوصى الإمام أبو الحسن الشاذلي قدس سره فقال : فِرَّ من مختاراتك كلها إلى الله تعالى ، فإن من اختار شيئا لا يدري أيصل إليه أم لا ، ثم إذا وصل إليه لا يدري أيدوم له أم لا ؟ وإذا دام له إلى آخر عمره فلا يدري أَلَهُ فيه خير أم لا ؟ فالخيرة فيما اختاره الله .

وقيل للحسين بن علي رضي الله عنه : إن أبا ذر رضي الله عنه يقول : الفقر أحب إليَّ من الغنى ، والسُّقْم أحبُّ إليَّ من الصِّحَّة ، فقال : رحم الله أبا ذر ، أمَّا أنا فأقول : مَنْ وَثِق بحُسْن اختيار الله لم يختر غير ما اختاره الله .

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الاشعري رضي الله عنه : أما بعد فإن الخير كله في الرضا فإن استطعت أن ترضى فنِعِمَّا وإلا فاصبر .

وإن الرضا بما يقضي به الله ثمرة حسن الظن به تعالى ، لذلك قال ابن مشيش قدس سره : لا تَتَّهِمْ الله في شيء ، وعليك بحسن الظن به في كل شيء ، ولا تُؤْثِرْ نفسك على الله في شيء .

وقد عدّ العلماء الرضا بالقضاء من الحسنات التي لا تَضُرُّ معها السيئات ، فقيل : سيئتان قلَّ ما ينفع معهما كثرة الحسنات : السخط لقضاء الله والظلم لعباد الله ، وحسنتان قل ما يضر معهما كثرة السيئات : الرضا بقضاء الله والصفح عن عباد الله .

وعدّوا الرضا من أفضل الأعمال فقيل : أفضل الأعمال أربعة : المحبة لله والرضا بقضاء الله والزهد في الدنيا والتوكل على الله .

إن من يرضى بقضاء الله تعالى يحيا مرتاح القلب ، ومن يختار لنفسه ويدبّر لها يعيش حياته مهموماً مكدّراً ، قال سهل التستري ﷫ : ذروا التدبير والاختيار ؛ فإنهما يكدران على الناس عيشهم !

وقال الإمام ابن عطاء الله السكندري ﷫ : أَرِحْ نفسك من التدبير فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك .

وقد دقّق الأكابر في هذه المسألة ، واعتبروا الاعتراض على حال العبد اعتراضاً على خالقه الذي قضى له بهذا الحال وقدّره عليه ، فقد قال الإمام الشعراني﷫ : أخذ علينا العهود إذا رأينا أحداً في ضيق أن لا نبادر إلى قولنا مسكين ؛ فإن في ذلك رائحة اعتراض على الله عز وجل ، بل نسأل الله له التفريج والصفح عنه .

الرضا والتسليم نهاية العبودية :

إن الرضا والتسليم هما نهاية العبوديَّة والعبادة ، وكمال الإسلام في التسليم والتفويض ، فإن صاحب التسليم لو طُوِّق في رقبته طوق اللعنة كإبليس ؛ لكان راضياً من حيث أنه قضاء الحق وتقديره ، مثل رضائه بإيمانه وإسلامه ؛ لأن الطالب الصادق راضٍ بقضاء الله تعالى وقدره لا بفعل نفسه ، وإذا وقع للطالب مكروهٌ وحصل التفاوت عنده فهو عبد نفسِه ، وإن لم يحصل عنده تفاوت فهو عبد ربِّه ، وهذا أصل كلِّ أمر وأساسُه ، فبهذا ينبغي لك أيها السالك أن تكون دائماً له عبداً ، كما أنه تعالى وتقدس دائماً لك ربٌّ ، ولله درّ القائل :

إذا كان في مدح وذم تفاوتٌ لديك فأصناماً لَعمْرِيَ تَعْبُد

وهذا أصل اتَّفق عليه أكابر الخواص في سائر الطرق .

وسأل الإمام الشعراني ﷫ شيخه علياً الخواص ﷫ : هل أتكرّم وأؤثر أهل القِلَّة ؟ أم أتأدب مع الله تعالى الذي أفقرهم ؟ فقال : الأدب أرجح عندي ،

فإن الله تعالى ما أفقر غنيا إلا لحِكَم أراد إظهارها فلا تَجْهَلْ ، فإنَّ كل ما في الوجود بمَرْأى من الله تعالى ومَسْمَع ، فاصحبه تعالى بالأدب معه ومع مصنوعاته بما هي عليه في تلك الحالة التي شهدتها ، ولا تطلب نقلها عن تلك الحالة بغير إذن صريح منه ، وربما خالفت الأدب وطلبت أن تُغْنِيَ من أفقره الله فيحوّل تعالى حال ذلك العبد إليك وينقلك عما تحبه وترضاه ، إلى ما لا تحبه وترضاه كما طلبت أن تنقل ذلك العبد عما أحبه الله ورضيه له ، ثم إن عفا عنك ولم يعاقبك فقد يكون ذلك العفو استدراجا لك من حيث لا تشعر فتهلك مع الهالكين .

الراحة في التسليم :

ثم اعلم أنه من أقبح ما يكون من العبد من سوء الأدب أن يسأل ربه شيئا ويلحَّ فيه ، فإذا أعطاه له تَقَلَّقَ منه وسأل ربه زواله ، لكثرة ما ينفتح عليه بسبب ذلك من التعب ، بل لو أنه ترك السؤال من أصله حياء من الله عز وجل لأعطاه فوق ما يُؤَمِّل ، وضَمِنَ له حسن عاقبته ، فتَرْكُ السؤال أولى ، هذا فيما يتعلَّق بمصالح نفس العبد ، أما مصالح غيره من الناس فلا مانع منه .

وربما أتت النعم في المحن وربما أتت المحن في النعم ، فإذا نظرنا إلى باطن النعم وجدناها مشتملة على جملة من البلايا ، وأقلُّ ما فيها أن الحق يطالب صاحبها بالقيام بحقها من دوام الشكر عليها بالقلب لا باللسان ، وكذلك يطالب صاحبها بإضافتها إلى الله تعالى دائما ، وكذلك بصرفها في المواطن التي ندب الحق تعالى العبد أن يصرفها فيها ، وإذا نظرنا إلى باطن النِّقَم وجدناها من أعظم النعم ، لأنها تورث عندنا الندم والذل ، وخفض الجناح ، والله تعالى ما وضع لنا الطاعات والعلوم إلا ليَرُدَّنا إليه سبحانه وتعالى ، والأنبياء وكُمَّل الأولياء نفوسهم صارت بالتكاليف في غاية الذل ، فلم يبتلوا بشيء من النقائص .

وتأمَّلْ من لم يُزَكِّ نفسه من العُبَّاد إذا أُعجبوا بأعمالهم إن أراد الله تعالى أن يرحم مثل هؤلاء ابتلى أحدهم بزنى ، ثم يهتكه بين الجيران والمعارف ويسلط عليه من يسحبه إلى بيت الوالي ، فيكتبوا اسمه في سجل المجرمين فيصير يرى نفسه بعد ذلك أحقر من نقطة عذرة .

وقد هتف هاتف بالإمام الشعراني ﷺ : يا عبد الوهاب اسمع هذا الكلام الجامع لكل كلام ، ولميزان جميع ما جاءت به الكتب الإلهية : فقال له في المنام : نعم ، فقال : ليس للعبد أن يشغل قلبه بالاختيار نَفَسَا واحداً لفعل شيء ، أو تركه في مستقبل الأنفاس ، وإنما عليه أن يُعطيَ ما أبرزناه على يديه حَقَّه في حال شروعه في ذلك العمل ، فإن كان طاعة حمَدَنا عليها واستغفَرَنا من تقصيره فيها ، وإن كان معصية حَمَدَنا على تقديرها عليه ، واستغفَرَنا من مخالفة أمرنا ، وإن كان غفلة أو سهوا فعل ما هو اللائق بمقامه ، وقد قربنا لك طريق الأدب معنا في كل ما نجريه على يديك .

فقد علمتَ أنه لا يبرز منا فعل قط إلا وله دواء ، **وإنَّ حقيقة العبد كالبَوَّاب لظهور الأفعال من أبواب جوارحه** الظاهرة والباطنة ، فيعطي كل فعل حقه ، وهو عبد في كل حال انقلبت عليه .

إن الكامل ينظر إلى نسب الأشياء بعينين صحيحتين ، أما صاحب العين الواحدة كالفقيه والفقير فهو أعور ، فإن كل من شهد أنه فاعل لكنه قصر في الفعل فقد أشرك في الله عز وجل ، فإن الله تعالى لم يطلب منا قط خلق الأعمال وإنما قال : اعملوا ما أنا خالقه لا غير ، ومن هنا كانت شدة الندم على الذنب من شدة نسبة العمل للعبد ، ولكن لا يجوز للعبد احتقار معاصيه ؛ لأن تعظيمها يقوي استعداده ، ويرقيه إلى رتبة الإحسان ، فإذا ترقّى إليها احتقر الذنوب في جانب عفو الله عز وجل لأنه لا يرى هناك فاعلاً إلا الله تعالى ، فإياك يا أخي أن تأمر المؤمن بما تأمر به المحسن من عدم الندم ، فإن ذلك يرده إلى أسفل .

واعلم أن كل عارف لا يمكنه قط أن يشهد لنفسه مدخلا في إيجاد الفعل وإنما يشهد كونه محلا لظهور الأفعال ، لأنها لا تظهر إلا في جسم من حيث كونها أعراضا ، فكأنَّ أعضاء العبد أبواب للأعمال ، كالباب الذي يخرج منه الناس لا غير ، فليس الناس الخارجون متولّدين من ذلك الباب .

فإذا كانت نَفْس ذات العبد مخلوقة لله تعالى وحده فكيف ينشأ عنها شيء يتقبل والذات نفسها بأعمالها تلك لله تعالى لم تخرج عن ملكه طرفة عين ، ومن تحقق بهذا لم يفرح بكثرة إبراز الأعمال الصالحة على يديه ولم يحزن لقلتها .

قال الشيخ الشاذلي ﵁ : رأيت أني جالس مع رجل بين يدي أستاذي فقال : احفظ عني أربعة فصول ثلاثة منها لك وواحدة لهذا المسكين : لا تختر من أمرك شيئا واختر أن لا تختار ، وفِرَّ من ذلك المختار ومن فرارك ومن كل شيء إلى الله ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ وكُلُّ مختارات الشرع وترتيباته فهي مختار الله ليس لك منه شيء ولا بد لك منه ، واسمع وأطع ، وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ، وعليك بالزهد في الدنيا والتوكل على الله ، فإن التوكل رأس في كل الأحوال ، واشهد بالله واعتصم به في الأقوال والأفعال والأخلاق والأحوال ، وإياك والشك والشرك والطمع والاعتراض على الله في شيء ، واعبد الله على القرب الأعظم[1] ، ثم قال : والذي قطع نفس هذا المسكين[2] أمران : دخوله في عمل دنياه بتدبيره ، وفي عمل أخراه على الرَّيْب في مواهب محبوبه ، فارجعوا إلى الله في أوائل التدبير والتقدير تحظوا منه بمدد التيسير ، وكل سيئة يعقبها الخوف والهرب إلى الله لا يُعدُّ لها وزرا ، خذ رزقك من حيث أنزلك الله باستعمال العلم ومتابعة السنة ، ولا ترق قبل أن يرقى بك فتزل قدمك .

---

(١) لعل المراد بالقرب الأعظم مقام الإحسان .

(٢) يقصد بالمسكين الرجل الذي كان معه .

من رضي فله الرضا :

وقد أخبر الحق تعالى أن من علامات رضاه عن عبده أن يرضى العبد عن مولاه ، فقال عز وجل : ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ « البينة ٨ »

وقال تلميذ لأستاذه : إذا وجدتُ قلبي راضيا عن الله تعالى علمت أنه راض عني ، فقال له الأستاذ : أحسنت يا غلام .

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام :يا ابن عمران إن رضاي في رضاك بقضائي .

الفصل الثالث الحياء

حقيقة الحياء :

اعلم أن الحياء لغويا الحشمة وانقباض النفس عن القبائح ، وفي اصطلاح أهل التصوف : الحياء هو انقباض القلب ،وعرّفه إمام الطائفة الجنيد قدس سره بقوله : رؤية الآلاء ، ورؤية التقصير ، فيتولد من بينهما حالة تسمى الحياء ، وهو ترك الدعوى[1] بين يدي الله ثم اعلم أن الحياء على وجوه :

١ . حياء الجناية ؛ كآدم عليه السلام ، فقد روي أنه حين أكل من الشجرة أخذ يجري في الجنة ، فناداه الحق تبارك وتعالى : أفراراً منا ! فقال : لا ، بل حياء منك .

٢ . وحياء التقصير ؛ كالملائكة يقولون له سبحانه : ما عبدناك حق عبادتك .

٣ . وحياء الإجلال ؛ كإسرافيل عليه السلام ، تَسَرْبَلَ[2] بجناحه حياء من الله عزَّ وجلَّ .

٤ . وحياء الكرم ؛ كالنبي صلى الله عليه وسلم حين أَوْلَم على زينب رضي الله عنها فجلس المسلمون وأطالوا الجلوس حتى تأخر الليل ، و كان صلى الله عليه وسلم يستحي أن يقول

(١) الدعوى هنا يقصد بها ادعاء القيام بحق الله تعالى .
(٢) تسربل أي : لبس والمعنى ستر نفسه .

لهم : اُخرجوا ، فنزل قوله تعالى :﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ . . . ﴾ « الأحزاب ٥٣ » .

إشارة الى حفظ الأدب فى الاستئذان ومراعاة الوقت وإيجاب الاحترام ، وفيه دلالة بينة على أن المراد بالإذن الى الطعام هو الدعوة اليه أي : إذا أذن لكم فى الدخول ودُعيتم إلى الطعام فادخلوا بيوته مع الأدب وحفظ أحكام تلك الحضرة .

وفى « التأويلات النجمية » : إذا انتهت حوائجكم فاخرجوا ولا تتغافلوا ، ولا يمنعْكم حسن خلقه من حسن الأدب ، ولا يَحْمِلَنَّكم فرط احتشامه على الإبرام عليه ، وكأنَّ حسن خلقه جَسَّرهم(١) على المباسطة معه ، حتى أنزل الله هذه الآية .

و قيل من حق العاقل الداخل على الكرام قلة الكلام وسرعة القيام ، ومن علامة الأحمق الجلوس فوق القدر والمجيء فى غير الوقت .

ويدخل في حياء الكرم ما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ ﴾ « القصص ٢٥ » قيل : إنما استحيت بنت شعيب من موسى عليه السلام ؛ لأنها كانت تدعوه إلى الضيافة ، فاستحيت أن لا يجيب موسى عليه السلام ، فصفة المضيف الاستحياء ، وذلك استحياء الكرم .

٥ . وحياء الحشمة ؛ كعلي رضي الله عنه ، حين سأل المقداد بن الأسود حتى يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حكم خروج المذي ، لمكان فاطمة رضي الله عنها .

(١) جسّرهم أي : شجّعهم .

٦ . وحياء الاستحقار ؛ كموسى ﷺ قال : إني لَتَعْرُض لي الحاجة من الدنيا ، فاستحي أن أسألك يا رب ، فقال الله عز وجل له : سَلْني حتى عن ملح عجينك ، وعلف شاتك .

٧ . وحياء الإنعام ، و هو حياء الرب سبحانه ، يدفع إلى العبد كتاباً مختوماً بعد ما عبر الصراط ، وإذا فيه : فعلتَ ما فعلتَ ، وقد استحييتُ أن أظهره عليك ، فاذهب ، فإني قد غفرت لك !

وقد بيّن ﷺ حقيقة الحياء حين قال : « أيها الناس ؛ استحيوا من الله حق الحياء ، قالوا : إنا نستحيي يا نبي الله ، والحمد لله ، قال : ليس ذلك ، ولكن من استحيا من الله حق الحياء : فليحفظ الرأس وما وعى ، وليحفظ البطن وما حوى ، وليذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » .

وقال بعض الحكماء : أَحْيوا الحياء بمجالسة من يُستْحيا منه .

الحياء من الإيمان :

واعلم أن من شرط المريد أن يكون باطنه بيت الاحتراق[1] على الدوام ، قال الفضيل بن عياض ﷺ : خمس من علامات الشقاء : القسوة في القلب ، وجمود العين ، وقلة الحياء ، والرغبة في الدنيا ، وطول الامل .

وقد قالوا بأنه إذا ذهبت الهيبة والحياء من العبد لم يبق فيه خير .

وعلى قدر إيمان العبد وزهده في الدنيا ، يكون حياؤه من الله تعالى ،حتى قال الأكابر : إن الحياء والأنس يطرقان القلب ؛ فإن وجدا فيه الزهد والورع حَطَّا ، وإلا رَحَلا ، وقد قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ « يوسف ٢٤ » قيل في البرهان : أن زليخة ألقت ثوباً على وجه

(١) أي : دائم الاحتراق حياء من التقصير في جنب الله تعالى .

صنم في زاوية البيت ، فقال يوسف عليه السلام : ماذا تفعلين ؟ فقالت : استحي منه ، قال يوسف عليه السلام : أنا أولى منك أن أستحي من الله تعالى .

من صور الحياء عند أهل الطريق :

ولقد برزت صورٌ عظيمة للحياء من الله تعالى لدى السلف الصالح ، وجميعها كان بغير تكلّف منهم ، فقد كان بعضهم يستحي من الله تعالى أن يدخل المسجد وهو بيت الله لأنه عصاه ، فقد رؤي رجل يصلي خارج المسجد ، فقيل له : لم لا تدخل المسجد فتصلي فيه ؟ فقال : استحيي منه تعالى أن أدخل بيته ، وقد عصيته !

ومنهم من يستحيي من الله أن يخاف سواه ، قال بعضهم : خرجنا ليلة فمررنا بأَجَمَة[١] ، فإذا رجل نائم ، وفرس عند رأسه ترعى ، فحركناه ، وقلنا له : ألا تخاف أن تنام في مثل هذا الموضع المخوف وهو مسبع ؟فرفع رأسه ، وقال : أنا أستحي منه تعالى ، أن أخاف غيره ، ووضع رأسه ونام .

وقال أبو بكر الوراق رحمه الله : ربما أصلي لله تعالى ركعتين ، فأنصرف عنهما ، وأنا بمنزلة من ينصرف عن السرقة من الحياء .

حياء الله من عبده :

واعلم أن الحق تعالى يستحي من عباده ، فقد كتب في التوراة : اِستحِ من العصيان فإني أَستحي من عذابك ! ، وفي بعض الكتب : ما أنصفني عبدِي ، يدعوني فأستحي أن أرده ، ويعصيني فلا يستحي مني .

وفي الحديث قال ﷺ : « إن الله حَيِيٌّ كريم يستحي أن يرفع عبده يديه ويردهما صِفْرا » .

(١) الأجمة هي موضع الشجر الكثيف .

الفصل الرابع : حسن الخلق

فضل حسن الخلُق :

إن حسن الخلق هو أفضل مناقب العبد ، وبه يظهر جوهر الرجال ، وقد خصّ الله تعالى نبيه ﷺ بما خصَّه به ، ثم لم يُثْنِ عليه بشيء من خصاله بمثل ما أثنى بخلقه ؛ فقال عزَّ من قائل : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ « القلم ٤ »

قال العلماء : الخلق العظيم أن لا يُخاصِم ولايُخاصَم ، من شدِّة معرفته بالله تعالى ، وقيل : المعنى لم يُؤَثِّر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك الحق تعالى[1] ، وقيل : لم يكن لك همة غير الله تعالى .

وقد فسّر العلماء هذه الآية وأجادوا في ذلك ، فقالوا : وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم لا يدرك شَأْوَه[2] أحد من الخَلْق ، ولذلك تحتمل من أذى الخلق ما لا يكاد يحتملُه البشر ، قال بعضهم : لكونك متخلقا بأخلاق الله ، فلا تتأثر بافترائهم ولا تتأذى بأذاهم ، إذ بالله تصبر لا بنفسك ،كما قال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ « النحل ١٢٧ » ، ولا أحد أصبر من الله ،وكلمة ﴿عَلَىٰ خُلُقٍ﴾ القلم : ٤ للاستعلاء ، فدلت على أنه ﷺ مشتمل على الأخلاق الحميدة ، ومستولٍ على الأفعال المرضية حتى صارت بمنزلة الأمور الطبيعية له ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ « ص ٨٦ » أي لست متكلفا فيما يظهر لكم من أخلاقي ؛ لأن المتكلف لا يدوم أمره طويلا بل يرجع إليه الطبع .

ولذا قالوا الخلق يتبدل بالمصاحبة والمعاملة ، فيصير الحسن قبيحا والقبيح حسنا على حال المصاحبين والمعاملين كما في الحديث « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » وفي حديث آخر « لا تجالسوا اهل الأهواء والبدع فإنَّ لهم عرَّة كَعَرَّة الجَرَب »[3]

---

(١) أي : بعد أن طالعتَ وشاهدتَ أنوار الحق تعالى لم تعد تتأثّر بجفاء عبيده .
(٢) شأوه أي : شأن ذلك الخلُق .
(٣) عرة الجرب أي : حكّة الجرَب ، والجرب مرض معروف .

وإنما أفرد الخُلُق ووصفه بالعظمة كما وصف القرآن بالعظيم؛ لينبه على أن ذلك الخلُق الذي هو ﷺ عليه جامع لمكارم الأخلاق، اجتمع فيه شكر نوح وخُلَّةُ ابراهيم وإخلاص موسى وصدق وَعْد إسماعيل وصبر يعقوب وأيوب واعتذار داود وتواضع سليمان وعيسى وغيرها من أخلاق سائر الأنبياء عليهم السلام، كما قال تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، إذ ليس هذا الهدى معرفة الله تعالى؛ لأن ذلك تقليد وهو غير لائق بالرسول ﷺ، ولا الشرائع؛ لأن شريعته ناسخة لشرائعهم ومخالفة لها في الفروع، والمراد منه الاقتداء بكل منهم فيما اختص به من الخلق الكريم، لكون كل منهم مختصا بخلق حسن غالب على سائر أخلاقه، فلما أمر بذلك فكأنه أمر بجمع جميع ما كان متفرقا فيهم، فهذه درجة عالية لم تتيسر لأحد من الأنبياء عليهم السلام، فلا جَرَم وصفه الله بكونه على خلق عظيم، كما قال بعض العارفين:

لكل نبيٍّ فى الأنام فضيلة   وجُمْلتها مجموعة لمحمد ﷺ.

ويجمع هذا كله قول عائشة رضي الله عنها لما سُئلتْ عن خُلقه ﷺ فقالت رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن» أرادت به أنه ﷺ كان متحليا بما في القرآن من مكارم الأخلاق ومحاسن الأوصاف، ومتخليا عما يزجر عنه من السيئات وسَفْساف الخصال[1]، وفى رواية قالت للسائل: ألستَ تقرأ القرآن ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فذلك خلقه ﷺ».

(١) سَفْساف الخصال أي: رذائلها وصغائرها ورديئها.

وفيه تنبيه للسامعين على عظيم أخلاقه ﷺ من الإيمان الذي هو أصل الأخلاق القلبية ، والصلاة التي هي عماد الأخلاق البدنية ، والزكاة التي هي رأس الأخلاق المالية ، والعفّة عن النساء الأجنبيات ، وحفظ الأمانة والميثاق ، وكرّر الوصف بالحفاظ على الصلاة تنبيها على أهمية أمر الصلاة وعظيم شأنها .

قال الجنيد قدس سره : كان ﷺ على خلق عظيم لجوده بالكونين[١] وقال الحسين النوري قدس سره كيف لا يكون خلقه عظيما وقد تجلى الله لسره بأنوار أخلاقه[٢] .

وفي « تلقيح الأذهان » لحضرة الشيخ الأكبر قدس سره الأطهر : أوتي ﷺجوامع الكلم لأنه مبعوث لتتميم مكارم الأخلاق ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ، وهو عين كونه الصراط المستقيم ، قال ﷺ : « إن لله ثلاثمائة وستين خُلقا من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة ، قال أبو بكر رضي الله عنه : هل فيَّ منها يا رسول الله ؟ قال : « كلها فيك يا أبا بكر ، وأحبها الى الله السخاء » .

ولذلك كان أحسن أخلاق المرء فى معاملته مع الحق التسليم والرضى ، وأحسن أخلاقه فى معاملته مع الخلق العفو والسخاء ، وإنما قال مع التوحيد ؛ لأنه قد توجد مكارم الأخلاق ولا إيمان ، كما أنه قد يوجد الإيمان ولا أخلاق ، إذ لو كان الإيمان يعطي بذاته مكارم الأخلاق لم يقل للمؤمن افعل كذا واترك كذا .

مكارم الأخلاق هي زبدة الدين :

وإن مكارم الأخلاق التي بعث رسول الله ﷺ لإتمامها هي زبدة الدين ، لقوله ﷺ :« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، وحقيقتها أن يكون العبد هينا لينا مع أهل بيته وعبيده وجميع المسلمين ، قال رسول الله ﷺ : « أهل الجنة كل هين لين

---

(١) أي : لكونه ﷺ جاد على أمته بخير الدنيا وخير الآخرة ، ولم يطلب لنفسه شيئا .
(٢) والمعنى أن سرّه ﷺ قد استنار بأنوار أخلاق الرحمن جل جلاله ، فتخلّق بها كما ورد في الحديث : « تخلّقوا بأخلاق الله » .

سهل قريب ، وأهل النار كل شديد قَبَعْثَرِيّ » ، قالوا : يا رسول الله وما قَبَعْثَري ؟ قال :« الشديد على الأهل ، الشديد على الصاحب ، الشديد على العشير » . وقال مولانا العظيم ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ البقرة ٨٣ أي لا قبحا . وقال عز وجل ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ لإسراء :٥٣ ، والأحسن هو الذي جمع الحسن وزيادة .

وبالجملة فالذي تحب أن يواجهك الناس به من الكلام الطيب والقول الحسن والفعل الجميل فافعله مع خلق الله ، وما تكره أن يعاملك العباد به من الكلام الخبيث والقول القبيح والفعل الكريه فاترك الناس والخلق منه ، فإن الله عز وجل يعامل العبد بوصفه وخلقه الذي يعامل به الناس ، فإن المجازاة على الوصف بالوصف جزاء وفاقا ، فمن كان للخلق جنة ورحمة وظلا ظليلا يسترحون فيه كان الله له كذلك ، فمن أكرم عبدا لمراعاة سيده فإنما أكرم السيد نفسه ، ولذلك جآء في الحديث عن الله تعالى أنه يقول للعبد يوم القيامة : « جعتُ فلم تطعمني واستسقيتك فلم تسقني ومرضت فلم تعدني ، فيقول العبد : كيف تجوع وأنت رب العالمين ، وكيف تمرض وأنت رب العالمين ، وكيف تستسقي وأنت رب العالمين ؟ فيقول له سبحانه وتعالى مفسرا لذلك : أما أنه مرض عبدي فلان فلو عدته لوجدتني عنده ، وجاع عبدي فلان أما أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ، واستسقاك عبدي فلان أما أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي » ، ففسر سبحانه نفسُه قولَه « جعت ومرضت واستسقيتك » بقوله « جاع عبدي فلان ومرض عبدي فلان واستسقاك عبدي فلان » .

وللمكارم آثار ترجع على صاحبها في أي دار كان ، كما ورد في حق أبي طالب فقد قال العباس ﷺ : يا رسول الله إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل ينفعه ذلك ؟ قال : « نعم ولولا أنا كان في الدرك الاسفل من النار » ، و رؤي أبو لهب في المنام وهو يمص ماء من إبهامه ليلة الاثنين لعتقه بعض جواريه حين بشرته بولادة رسول الله ﷺ وقال بعض الصالحين : من أراد أن يرى رسول الله ﷺ ممن لم يدركه من أمته فلينظر إلى القرآن ، فإنه لا فرق بين

النظر فيه وبين النظر إلى رسول الله ﷺ ، فكأن القرآن انتشار صورة جسدية يقال لها محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

وقال بعضهم من أراد أن يرى رسول الله ﷺ فليعمل بسنته لا سيما في مكان أميتت السنة فيه ؛ فإن حياة رسول الله بعد موته هي حياة سنته ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ؛ لأنه ﷺ المجموع الأتم الأكمل .

وقال بعضهم : لم يبق بعد بعثة رسول الله ﷺ سَفْساف أخلاق أبدا ؛ لأنه ﷺ أبان لنا عن مصارفها كلها ، أراد أنه لم يبق وجهٌ من وجوه التحيّر ولا سببٌ لارتكاب الرذائل لكونه صلى الله عليه وسلم أبان ووضح الكريم من الرديء .

ويقال : إن الحق تبارك وتعالى عرض عليه ﷺ مفاتيح الأرض فلم يقبلها ، ورقّاه ليلة المعراج ، وأراه جميع الملائكة والجنة فلم يلتفت إليها ، قال تعالى :﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ « النجم ١٧ » ، فما التفت يمينا ولا شمالا ، ولهذا قال تعالى :﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ أي : لا بالبلاء تنحرف ، ولا بالعطاء تنصرف .

ومن المعلوم كم احتمل ﷺ من الأذى ،وكان يصبر على كل ذلك فقد شُجّ رأسه وثَغْرُه[١] ﷺ و مع ذلك كان يقول : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » ، ويوم القيامة حين يقول كل نبي : نفسي نفسي ، سيكون نداؤه ﷺ : « أمتي أمتي . . . »

قيل في حسن الخلق :

ولقد قيل في الخلق الحسن كلمات من ذهب ، أحببنا أن نسوق لك بعضاً منها ليكون تنشيطاً للعزائم ، وإيقاظاً للنائم :

---

(١) الثغر هو الأسنان .

١ . سئل رسول الله ﷺ : أيُّ المؤمنين أفضل إيماناً ؟فقال : « أحسنهم خُلُقاً » ، وسئل رسول الله ﷺ ، عن الشُّؤْم ، فقال : « سوء الخلق » .

٢ . وقال رسول الله ﷺ : « إنكم لا تَسَعُون الناسَ بأموالكم ولكن لِيَسَعْهُمْ منكم بَسْطُ الوجه وُحسن الخلق »

٣ . وقيل : يا رسول الله ، اُدْعُ الله تعالى على المشركين فقال : « إنما بُعِثْتُ رحمة ، ولم أُبْعَثْ عذاباً »

٤ . وقال الفضيل رحمه الله : لو أن العبد أحسن الإحسان كله ، وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين !

٥ . وقيل : حسن الخُلُق استصغار ما منك إليه تعالى واستعظام ما منه سبحانه إليك .

٦ . وقال شاه الكرماني رحمه الله : علامة حسن الخلق : كف الأذى ، واحتمال المُؤَن .

٧ . وقال وهب رحمه الله : ما تخلق عبد بخلق أربعين صباحاً إلا جعله الله طبيعة فيه .

٨ . وقال الحسن البصري رحمه الله في قول الله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ « المدثر ٤ » أي : وخُلُقَك فحسِّن .

٩ . وسئل أبو حفص رحمه الله عن الخلُق . فقال : هو ما اختار الله عزَّ وجلَّ لنبيه ﷺ في قوله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ « الأعراف ١٩٩ »

١٠ . وقيل : الخلق : أن تكون من الناس قريباً ، وفيما بينهم غريباً .

١١ . وقيل : الخلق قبول ما يردُ عليك من جفاء الخلق ، وقضاء الحق بلا ضجر ولا قلق .

١٢ . وقيل : الخلق الحسن احتمال المكروه بحسن المداراة .

١٣ . وقيل : الخلق السيء يضيق قلب صاحبه ؛ لأنه لا يسع فيه غير مراده ، كالمكان الضيق لا يسع غير صاحبه .

١٤ . وقيل : من سوء خلقك وقوع بصرك على سوء خلق غيرك .

من صور حسن الخلق :

وقد رويت عن السلف الصالح قصصٌ يحسبها المرء خيالاً ؛ وهي حق بلا امتراء ، ولكن أصحابها عرفوا الله تعالى فأدركوا بمعرفتهم حسن الخلق على حقيقته :

١ . قيل : كان ابن عمر ﷺ إذا رأى واحداً من عبيده يُحسن الصلاة يعتقه ، فعرفوا ذلك من خُلقه ، فكانوا يحسنون الصلاة مراءاة له ، وكان يعتقهم ، فقيل له في ذلك ؛ فقال : من خَدَعَنا في الله انخدعنا له !

٢ . وقيل للأحنف ﷺ[١] : ممن تعلمت الخلُق ؟ فقال : من قيس بن عاصم النقري ، قيل : وما بلغ من خُلقه ؟ قال : بينا هو جالس في داره إذ جاءت خادمة له بسَفُّود[٢] عليه شِواءٌ ، فسقط من يدها ، فوقع على ابن له ، فمات ، فدهِشت الجارية ، فقال : لا رَوْعَة عليك ، أنت حرة لوجه الله تعالى ! .

٣ . وقيل لإبراهيم بن أدهم ﷺ : هل فرحت في الدنيا قط ؟ فقال : نعم مرتين ، إحداهما : كنت قاعداً ذات يوم فجاء إنسان وبال عليَّ ؛ والثانية : كنت قاعداً فجاء إنسان وصَفَعَني .

٤ . وقيل : كان أويسٌ القَرَنيّ ﷺ إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة ، فيقول : إن كان ولا بد فارموني بالصغار ؛ كيلا تدقّوا ساقي فتمنعوني عن الصلاة .

(١) الأحنف بن قيس ﷺ كان من أهل الحِلم وحسن الخلق ، وبه يضرب المثل بين العرب فيمن حسن خلُقه وطابت سجيّته .

(٢) السَّفُّود هو العود من الحديد يُضمّ فيه اللحم ليشوى .

٥ . وشتم رجل الأحنف بن قيس ﷺ وكان يتبعه ، فلما قرب من الحي وقف ، وقال : يا فتى ، إن بقي شيء فقله ؛ كيلا يسمعك بعض سفهاء الحي فيجيبوك .

٦ . وروي أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ دعا غلاماً له ، فلم يجب ، فدعاه ثانياً وثالثاً فلم يجبه ، فقام إليه فرآه مضطجعاً ، فقال : أما تسمع يا غلام ؟ فقال : نعم . قال : فما حملك على ترك جوابي ؟ فقال : أَمِنتُ عقوبتك فتكاسلت ، فقال : اِمضِ ؛ فأنت حرٌّ لوجه الله تعالى .

٧ . وقيل : نزل معروف الكرخي ﷺ نهرَ دجلة ليتوضأ ، ووضع مصحفه ومِلْحَفَتَه[١] ، فجاءت امرأة وحملتهما ، فتبعها معروف ، وقال : يا أختي ، أنا معروف ولا بأس عليك ، ألك ابن يقرأ ؟ قالت : لا . قال : فزوج ؟ قالت : لا ، قال : فهاتي المصحف وخذي الثوب .

٨ . ودخل اللصوص مرة دار الشيخ أبي عبد الرحمن السلمي ﷺ بالمكابرة[٢] ، وحملوا ما وجدوا ، فسمعت بعض أصحابنا يقول : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن يقول : اجتزت بالسوق ، فوجدت جبتي على من يزيد[٣] ، فأعرضت ، ولم ألتفت إليه .

٩ . وقالت امرأة لمالك بن دينار ﷺ : يا مرائيْ ! فقال : يا هذه ! وجدتِ اسمي الذي أضلَّه أهل البصرة !

١٠ . وقيل ليحيى بن زياد الحارثي ﷺ وكان له غلام سوء : لِمَ تمسك هذا الغلام ؟ فقال : لأتعلم عليه الحلم .

---

(١) الملحفة واللّحاف وهو الثوب الذي يُلبس فوق سائر الثياب .
(٢) المكابرة هي المعاندة والمغالبة .
(٣) بيع من يزيد = نوع من أنواع البيوع ، ينادى فيه على السلعة وتباع للمشتري الذي يدفع زيادة على غيره .

١١ . وحكي أن إبراهيم بن أدهم رحمه الله خرج إلى بعض البراري فاستقبله جندي ، فقال : أين العمران ؟ فأشار إلى المقبرة ، فضرب رأسه وأوجعه ، فلما جاوزه ، قيل له : إنه إبراهيم بن أدهم زاهد خراسان فجاءه يعتذر إليه ، قال : إنك لما ضربتني سألت الله تعالى لك الجنة ، فقال : لِمَ ؟ فقال علمت أني أؤجر عليه ، فلم أرد أن يكون نصيبي منك الخير ، ونصيبك مني الشر !

١٢ . وحكي أن أبا عثمان الحيري رحمه الله دعاه إنسان إلى ضيافة ، فلما وافى[١] باب داره قال : يا أستاذ ، ليس الآن وقت دخولك ، وقد ندمت ، فانصرف ، فرجع أبو عثمان ، فلما وافى منزله عاد إليه الرجل ، وقال : يا أستاذ ، ندمت ! وأخذ يعتذر إليه ، وقال اُحضر الساعة ، فقام أبو عثمان ومضى ، فلما وافى باب داره قال : مثل ما قال في الأولى ، ثم كذلك فعل في الثالثة والرابعة ، وأبو عثمان ينصرف ويحضر ، فلما كان بعد مرات قال : يا أستاذ ، أردت اختبارك ! وأخذ يعتذر ويمدحه ، فقال أبو عثمان : لا تمدحني على خلقٍ تجد مثله مع الكلاب ؛ الكلب إذا دُعِيَ حَضَرَ ، وإذا زُجِرَ انزجر !

١٣ . وقيل : إن أبا عثمان رحمه الله اجتاز بسكة[٢] وقت الهاجرة ، فألقي عليه من سطح طست[٣] رماد ، فتغير أصحابه ، وبسطوا ألسنتهم في المُلقي ، فقال أبو عثمان : لا تقولوا شيئاً ، من استحقَّ أن يصبّ عليه النار ، فصولح على الرماد لم يجز له أن يغضب !

١٤ . وقيل : نزل بعض الفقراء على جعفر بن حنظلة رحمه الله ، فكان جعفر يخدمه جداً ، والفقير يقول : نِعْمَ الرجل أنت لو لم تكن يهوديّاً ![٤] فقال جعفر : عقيدتي لا تقدح فيما تحتاج إليه من الخدمة ؛ فسل لنفسك الشفاء[٥] ولي الهداية .

(١) وافى : أي : جاء .
(٢) السِّكة هي الطريق المستوي .
(٣) الطست نوع من أنواع الأواني .
(٤) لعل الفقير ظنه يهوديا ، و جعفر رحمه الله من تواضعه لم يبين له حقيقة عقيدته .
(٥) لعله كان مريضاً .

١٥ . وقيل : كان لعبد الله الخياط ﷺ حَرِّيف مجوسي[1] ، يخيط له ثياباً ، ويدفع إليه دراهم زيوفاً ، وكان عبد الله يأخذها ، فاتفق أنه قام من حانوته يوماً لشغل ، فجاء بالدراهم الزيوف ، فدفعها إلى تلميذه ، فلم يقبلها ، فدفع إليه الصحاح ، فلما رجع عبد الله قال لتلميذه : أين قميص المجوسي ؟ فذكر له القصة ،فقال : بئس ما عملت ؟ إنه منذ مدة يعاملني بمثلها ، وأنا أصبر عليه ، وألقيها في بئر ، لئلا يغر بها غيري .

الفصل الخامس : الزهد في الدنيا

معنى الزهد :

اعلم أن حقيقة الزهد هي فراغُ القلب مما سوى الرب تعالى ، و نسيانه الأسبابَ ونفض الأيدي من الأملاك ، وهو قَصْر الأمل و خلو القلب عما خلت منه اليد ، ويورث السخاء بالمِلك ، كما يورث الحب السخاء بالروح .

ولا يبلغ أحد حقيقة الزهد حتى تكون فيه ثلاث خصال : **عملٌ بلا علاقة** ؛ فلا يتعلّق بعمله بل يعلّق قلبه بالتوكل على الله تعالى وما عمله إلا أخذ بأسبابٍ أمره الله تعالى بالأخذ بها ، **وقول بلا طمع** ؛ بأن لا يبغي من كلامه الطمع فيما عند الناس ، **وعزٌّ بلا رياسة** ؛ فمهما أعزّه الله تعالى وأعلى شأنه يرى نفسه دون كل جليس يجالسه ولا يترأس على الخلق ولا يتعالى عليهم .

واعلم أن حب الدنيا مذموم في كل الشرائع وهو رأس كل خطيئة ، وسبب كل فتنة ، فعلى العبد أن يزهد في الدنيا وأن يخرج من قلبه حب الجاه ، فإن حب الجاه أضر على صاحبه من حب المال وهما دالان على حب الدنيا وهي عدوة للإنسان .

---

(١) الحَرّيف : الشخص الذي يُكثر المعاملة معه من بيع وشراء .

حقارة الدنيا توجب على العاقل الزهد فيها :

واعلم أن أهل الله كشفوا حقيقة الدنيا وعرفوا خسّتها ، فلم ينظروا إليها ولم يتعلقوا بها ، روي أن سيدنا عليا ﷺ دخل على المقابر يوما وقال : يا أهل القبور السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، تخبروننا بأخباركم او نخبركم ؟ فسمع صوتا يقول : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، أخبرنا بما كان بعدنا ، فقال : أما أزواجكم فقد تزوجت ، وأما أموالكم فقد قسمت ، وأما الأولاد فقد حشروا في زمرة اليتامى ، وأما البناء الذي شيدتم فقد سكنه أعداؤكم فهذه أخبار ما عندنا ، فما أخبار ما عندكم ؟ فقال : قد تخرقت الأكفان ، وانتشرت الشعور وتقطعت الجلود ، وسالت الأحداق على الخدود ، وسالت المناخير بالقيح والصديد ، ما قدمناه وجدناه ، وما خلفناه خسرناه ، ونحن مرتهنون بالأعمال .

وقال الفضيل بن عياض ﷺ : لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت علي ولا أحاسب بها لكنت أتقذّرها كما يتقذّر أحدكم الجيفة إذا مرّ بها أن تصيب ثوبه !

وقيل لإبراهيم بن أدهم ﷺ : إن اللحم قد غلا ! فقال : أَرْخِصوه ! أي لا تشتروه !

وقرّر أهل الطريق أن من نظر إلى الدنيا نظرة إرادة وحب أخرج الله نور اليقين والزهد من قلبه ، وحين سئل ابو الحسين الحواري ﷺ عن الزهد قال : النَّظَرُ إلى الدنيا بعين النقص والإعراض عنها تَعزّزا ، وتَطَرُّفاً وتَشَرُّفاً .

وقد قال السيد الشريف قطب العارفين السيد أحمد الحسيني في « العقد النفيس » : قال الله تعالى لموسى عليه السلام : إذا رأيت الفقر قد أقبل فقل مرحبا بشعار الصالحين ، وإذا رأيت الدنيا قد أقبلت فقل هذا ذنب عجلت عقوبته ، وورد في الحديث « القناعة كنز لا يفنى »قال أحد الصالحين : إن القناعة عندنا أن لا يميز الإنسان بين خبز شعير ناضج وبين غير ناضج حين وجده ، وأن يأكل منه أيضا ما يقدر به أن يحرك يديه ورجليه للصلاة .

لقد كان السلف الصالح يرون أن الأحمق من مات ولده وجعل يبكي عليه ولا يبكي على ما فاته من الله عز وجل ، كأنه يقول أنا أبكي على ما كان يشغلني عن ربي ، بل كان ينبغي له الفرح بذلك ويقبل على مولاه ؛ لأنه أخذ منه ما كان يشغله عنه تعالى ، فإن الولد والزوجة والخادم والصديق لا يبكون عليك إذا مت ؛ بل يبكون على ما فاتهم منك ، فسابقهم أنت بالبكاء وقل : يحق لي أن أبكي على فوات حظي من ربي قبل أن يبكوا علي ! .

إن من أراد الله أن يتخذه وليا كرّه إليه الدنيا ، وقد روي في الخبر : « ما دخلت الدنيا بين قوم إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء »

وإن الدنيا لا تَزِن عند الله تعالى جناح بعوضة ، ومن فهم هذا المثال لم يمدح أهل الله تعالى إذا زهدوا في الدنيا ؛ لأن ما زهد فيه جميع الزاهدين مما خصّهم من الجناح شيء لا يرى بالبصر لصغره ، وكلَّ من مَدَحَ من أُعطي ذلك الزهد فقد عظّم الدنيا ، وكأنّ خُدَّام الحضرة الإلهية يقولون : لا نُمَكِّن أحداً يُحِب الدنيا أن يدخل إلى حضرة الحق تعالى إلا إن رمى ما معه من جناح البعوضة وداسه بنعله ، فما تجرَّأ أحد منهم أن يفعل ذلك !

وقد قال الإمام الشعراني ﷺ :أخذ علينا العهود أن نرى حقارة هذه الدنيا الدنيئة ، ونسعى في عمارة الدار الباقية ، ولا يخفى عليك أيها الأخ المحبوب ، والخليلُ المرغوب : أنَّ الأنفاس معدودة لا تزيد ولا تنقص ، وهذه الدار مزرعة الآخرة ، وأن مَن تعطَّل في أيام الزراعة يندم أيام الحصاد ، وقد قال تعالى﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ « النجم ٣٩ » وقال تعالى أيضاً في حق الرزق والنفقة ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ « هود ٦ » ، فالسعي والاجتهاد في طلب ما ضمن الله تعالى ، والتعطيلُ والفتورُ في طلب ما وُكِل إلينا من أعظم الحماقة وتَيقَّن أنَّ مَثَل مَن يهتم بأمر النفس كمن يُربِّي حيَّة تقتله ، ومثل من أقبل على الدنيا بالإدبار عن أمور الآخرة كمثل كلب أكبَّ على الجيفة المُنْتِنَة .

حقيقة الزهد :

وقد فهم السلف الصالح حقيقة الزهد في الدنيا ، واعتبروه درجات روي أنه سُئِلَ أبو يزيد البسطامي ﷺ عن ابتدائه وزهده فقال : ليس للزهد منزلة . فقيل له : لماذا ؟ فقال : لأني كنت ثلاثة أيام في الزهد ، فلما كان اليوم الرابع خرجت منه ، اليوم الأول زهدت في الدنيا وما فيها ، واليوم الثاني زهدت في الآخرة وما فيها ، واليوم الثالث زهدت فيما سوى الله !

ليس الزهد أن لا تمسك الدنيا ، ولكن أن تمسكها بيدك وتخرجها من قلبك ، هكذا فهم الصالحون حقيقة الزهد ، وكانوا يقولون : أبق لك أيها المريد شيئا من الدنيا يكفُّك عن سؤال الناس ولا تسرف في ترك الدنيا بالكلية .

و قال الشعراني ﷺ :أخذ علينا العهد أن لا نزهد في الدنيا لنعيم الترك ؛ وإنما يكون زهدنا كزهد العارفين ، فنعلق القلب بمحبة ربنا وحده ونمسك الدنيا بحذافيرها بعد ذلك ، وذلك لأن الله عز وجل قد امتن علينا بأنه سخر لنا ما في السموات وما في الأرض ولولا حاجتنا إلى كل شيء فيهما ما صح وجه الامتنان !

ولذلك كانوا يكثرون من التنبيه على خطورة إمساك شيء من الدنيا في قلب العبد ، ويحذّرون السالكين اشدّ التحذير من عواقب حب الدنيا ، ومن بديع أقوالهم في ذلك :

قال أبو الحسن علي بن المزين ﷺ : لو زَكَّيْتُمْ[1] رجلا حتى جعلتموه صديقا لا يعبأ الله به وهو يساكن الدنيا بقلبه ، والله ما هلك من هلك من أهل الطريق إلا من حلاوة الغنى في نفوسهم .

وقال الشاذليّ ﷺ : ولا يحبه الحق تعالى حتى يبغض الدنيا وأهلها ويزهد في نعيم الدارين ، وكل من أحب الدنيا فالله تعالى يكرهه فيجب على المريد أن يرمي الدنيا من يده ومن قلبه

---

(١) زكيتم أي : مدحتم .

وقال أبو الربيع الواسطي ﷺ : قلت لداوود : أوصني ، فقال : صم عن الدنيا واجعل فطرك الموت وفرّ من الناس كفرارك من السبع .

وقال يحيى بن معاذ ﷺ : تورّع عما ليس لك ، ثم ازهد فيما لك .

طريق المسلم في محبة الدنيا :

لقد جبل الله تعالى النفوس على حب الولد والزوجة والجاه والمال ، ولئلا يقع السالك في المحذور من التعلق بالدنيا ، بيَّن لنا العلماءُ الطريق المشروع لمحبة هذه الأشياء ، فقال الإمام الشعراني ﷺ : اعلم يا أخي أن بيت الفتنة أربعة أمور : النساء والجاه والمال والولد ، **فأما محبة النساء** فطريقك يا أخي أن تحبهن بتحبيب الله لكونهن بعضَك ، فإنهن خُلِقْنَ منك فإذا أحببتهن فكأنك ما أحببت إلا نفسك ، ويؤيد ذلك حديث : (ابْدَأْ بِنَفْسِك) ، لا سيما والنساء محل الانفعال والتكوين والتوالد وما ظهر ملك الحق تعالى وظهرت أحكامه إلا بذلك ، فمن أحب النساء هكذا فقد أحبهن لله لا لنفسه وكانت محبته لهن نعمة من الله عليه ، لا نِقمة ؛ لأنهن رددنه إلى الله تعالى وإلى محبته ، فإن حبه لهن قد رجع إلى الله ؛ لكونهن مظهرا لظهور كمال الحق تعالى في الوجود لا لغيره ، وإلى ذلك الإشارة : « حُبِّبَ إِلَيَّ من دنياكم النساء » وتسمى هذه المحبّةَ المطلقة ، ولنا محبة أخرى مقيدة وهي محمودة أيضاً مثل محبة رسول الله ﷺ لعائشة ، أو لأبي بكر ﷺ ، وإنما كانت مقيدة لأنها إنما حصلت من أجل المناسبة الروحانية بين الشخصين في أصل النشأة ، والمزاج الطبيعي والنظر الروحي ولذلك كانت لا تزول ولا تتغيّر دنيا ولا أخرى .

وأما محبة الجاه : فسبب تأخر خروجها من رؤوس الصديقين عن سائر الصفات المذمومة ؛ كون النفوس كثيرة التعشق لها ، فإن الله إذا اعتنى بعبد لم يزل يخرج من نفسه الصفات المذمومة التي يدعيها لنفسه فإذا انتهى ذلك

الخروج وعلم من نفسه عند ذلك ما لم يكن يعلم من قبل من الدعوى لأوصاف الحق أحب الرياسة حينئذ لكونها من أوصاف ربه لا فخرا وتكبرا على الخلق

وأما محبة المال فإن العارف كذلك يقلبها لله تعالى ، ولا بد لهم من حب المال كما قلنا في الرياسة ، من حيث أن ذلك مركوز في أصل الجبلة ، ونظروا في حديث « إن الصدقة تقع بيد الرحمن » ، فأحبوا ذلك المال حتى يتصدقوا به

وأما محبة الولد ، فقد جعل الله تعالى الولدَ من أعظم ما يمتحن الله به عباده ، لينظر هل تحجب الوالدَ المحبةُ لولده عن إقامة الحدود التي قدّرها الله تعالى على ولده من غير رأفة عليه أم لا ؟! فمن أعظم الامتحان جَعْلُ الحق تعالى الولدَ في صورة خارجة عن الأب كالأجنبي عنه ، وما هو أجنبي ، كما أشار رسول الله ﷺ بقوله : « وَأَيْمُ الله[1] لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » فقد علمت من هذا التقرير أن كل من راعى هذه الفتن الأربع فلا خوف عليه من الدخول في الدنيا ، فإياك يا أخي أن تظن بأحد من الأولياء الذين دخلوا في الدنيا أن ذلك محبة في ذاتها قياسا عليك ، فإن ذلك سوء أدب في حقهم .

ميزان نفيس :

إذا علمت ذلك فامتحن نفسك يا أخي بقوله تعالى ﴿وَٱلۡأَخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ « الأعلى ١٧ » ، وبقوله ﷺ « ما نقص مال من صدقة » وبقوله : « ولا عفا رجل عن مظلمة إلا زاد بها عزا » وقوله : « إن الصدقة قد تضاعَف لصاحبها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة » وقوله : « لو اجتمع الثقلان على أن يَرُدُّوا عن عبد ذرة من رزقه ما استطاعوا » فإن وجدت نفسك منشرحة عند صرف الدنيا عنك مُحِبَّة لمن عارضك في وصول رزقك الذي زعمت أنه لك فأنت مؤمن بذلك .

(١) بمعنى والله ، وهو صيغة من صيغ القسم .

وأعلِّمك ميزانا تطيش على الذرّ[١] تفرّق بها بين الدنيا والآخرة : وهو أن تعلم أن كل ما حصل بواسطته تكدير من الناس مما يتنازع الناس فيه ويتنافسون عليه ، فهو معدود من الدنيا التي أمر الشارع بالزهد فيها ، فإن أعمال الآخرة التي لا يخالطها دنيا لا نزاع فيها ، كصيام النهار وقيام الليل وكثرة الصدقات وحفر الآبار وعمارة الأَسْبِلَة[٢] ونحو ذلك ، وما رأينا قط أحداً زاحمه أحدٌ فيما ذكرناه ، بخلاف التدريس والمشيخة ؛ وغيرهما مما في نظيره معلوم أو هدايا أو نشر صيت ، ونحو ذلك فافهم ، وقد سمع أحدهم بعض الرهبان يقول لخادم الكنيسة : أنت قليل الدين فاتر الهمة عن الخير كأنك تريد تطلب على ذلك شيئاً من الدنيا كالمسلمين !

وكان ﷺ يستحي أن يطلب حقه المتفق عليه بعد عمله ، ولما رعى الغنم مع رجل وانتهت المدة قال له الرجل : يا محمد طالب لنا خديجة بحقنا ، فقال ﷺ : « أنا أستحي من ذلك ! »

ينبغي للعلماء أن يكونوا راغبين عن الدنيا ، ومحرَّرين من أسر حُبِّ الجاه والرياسة ، وطمع المال والرفعة ؛ فهم حينئذ من علماء الآخرة ، وورثةُ الأنبياء ، وهم الذين يوزن مدادهم يَوم القيامة بدم الشهداء في سبيل الله ، فيترجَّحُ مدادهم ، ويكون قول القائل : « نوم العالم عبادةٌ » متحققاً في حقِّهم ، وهم الذين استحسن في نظرهم جمال الآخرة ونضارتها ، وظهرت قباحةُ الدنيا وشَنَاعَتُها ، فنظروا إلى الآخرة بنظر البقاء ، ورأوا الدنيا متَّسمة بسَمْت الزوال والفناء ، فلا جرم هَرَبوا من الفاني وأقبلوا على الباقي ؛ لأن الدنيا والآخرة ضرتان ؛ إن رضيت إحداهما سخطت الأخرى ، فإن كانت الدنيا عزيزة ؛ فالآخرة حقيرة ، وإن كانت الدنيا حقيرة ؛ فالآخرة عزيزة ، وجمع هذين الأمرين من قبيل جمع الأضداد .

---

(١) ميزان تطيش على الذر أي : ميزان دقيق بالغ الدقة .

(٢) الأسبلة جمع سبيل وهو كل ما كان في سبيل الله .

زهد النبي ﷺ :

وقد كان ﷺ أزهد الناس في الدنيا ، وأبعدهم عنها ، وقد عرض الحق عليه ﷺ أن يُسَيِّرَ معه جبال تِهامة ذهبا وفضة وزمردا فقال : « لا يا رب أجوع يوما وأشبع يوما » ، وقال ﷺ : « ما يَسُرُّني أن عندي مثل أحد ذهبا تمضي عليه ثلاثة أيام وعندي منه درهم واحد إلا درهما أَرْصده لدين » فقد كان ﷺ لا يحب أن يمسك من الدنيا شيئاً ، ولو أنه ملك مثل جبل أحد ذهباً فإنه يفرِّقه على المسلمين ولا يترك منه إلا ما يقضي به دَينه .

ونبه المسلمين إلى حقيقة المحبة ، وأن كمال الإيمان لا يتم إلا إن تُوِّج القلب بمحبته ﷺ ، وجُعِلَ حبه فوق حب كل حبيب ، فقال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وولده والناس أجمعين »

وبين للمسلمين أن الحرص على الدنيا لا يزيد صاحبه إلا ذلا ونهماً ، ولا يمكن أن يشبع طالب الدنيا منها مهما أوتي ، فقال ﷺ :« لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثا ، ولو أن له ثالثا لابتغى رابعا ، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب » !

وزيادة على ذلك ، فقد أحبّ النبي ﷺ أن يكون المسلم عفيف النفس ، ينظر إلى الدنيا بعين الرفعة والعزّة ، فقال ﷺ : « إن الصدقة أوساخ الناس وغُسالة ذنوبهم » ففي هذا الحديث إشارة واضحة إلى ضرورة كون النفس المؤمنة نفساً عزيزةً كريمةً عفيفةً عما في أيدي الناس لا تظهر فقرها وحاجتها إلا لله تعالى وحده .

بل وعلّم ﷺ المؤمنين أن الزهد باب المحبة لدى الله تعالى ، ولدى الناس فإن الناس لا يحبون الشخص الطامع بما في أيديهم ، فقال ﷺ : « ازهد في الدنيا يحبك الله ،وازهد فيما عند الناس يحبك الناس » .

ولذا قال العلماء :إذا أردت يا أخي قضاء حوائج الخلق عند الحكام وغيرهم فازهد في الدنيا ولا تجعل لك في ديوان صدقتهم وهداياهم اسما ، فإني أضمن لك التعظيم في قلوبهم والهيبة عند كل من يراك .

لقد قرّر الحق تعالى قاعدة عامة في الزهد حين قال : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ « الأحزاب ٤ » ،وبهذا يتأكد أن حب الدنيا لا يمكن أن يجتمع أبداً في قلب العبد مع حب الله تعالى وطلب رضوانه .

من ثمرات الزهد :

اعلم أن من زهد في الدنيا جعل الله تعالى غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة ، وما أحسن ما قال أحد الصالحين في مناجته : إلهي ما وجد من فقدك وما فقد من وجدك ، لقد خاب من رضي دونك بدلا ، ولقد خسر من بغى عنك متحولا

وقد رأى شخصٌ إبراهيم ابن أدهم وهو يرقع ثوبه فقيل له : ما عوضك الله يا إبراهيم عن ملك بلخ ؟ قال : شيء لا يصل إليه عقلك ، ولكن أظهر لك شيئا مما تفهمه ، فرمى بإبرته إلى البحر ودعا الله تعالى أن يردها عليه ، فإذا بحيتانٍ و كل حوت في فمه إبرة من ذهب فقال : يارب ما أردت إلا إبرتي ، والتفت إلى ذلك الشخص وقال : هذا مما أعطاني مما تفهمه !

الفصل السادس : الصدق

معنى الصدق :

إنَّ الصدق عماد أمر السالك ونظامه وتمامه وهو تالي درجات النبوة ، وأقلّ الصدق استواء السر والعلانية ، والصدّيق من صدق في جميع أقواله وأفعاله وأحواله ، و إنَّ الصدق هو موافقة الحق[1] في السر والعلانية ، و الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قَدْر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه ، ولا يحب اطِّلاعَ الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله ، ولا يكره أن يَطلع الناس على السيء من عمله .

(١) لعل المقصود بالحق هنا نقيض الباطل .

وقال الإمام الجنيد ﵁ : الصدق أن تصدق في موضع لا ينجيك منه إلا الكذب ، و الكذب : كلام مردود عند الشرع مذموم عند الطبع .

فضل الصدق :

إن اللسان هو قيمة الإنسان فمن قوّمه زادت قيمته ، وحسبنا في بيان فضل الصدق حديث النبي ﷺ حين قال : « دع ما يَريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طُمَأْنينة والكذب ريبة » ، وقال ﷺ : « إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار » .

وقيل للقمان ﵀ : ما الذي بلغ بك إلى هذه المرتبة ؟ فقال : صدق الحديث وترك ما لا يعني .

وقد اتفق العلماء على أن النجاة في الصدق ، حتى ولو كان في ظاهره جلب المتاعب ، فقالوا : عليك بالصدق حيث تخاف أنه يضرك فإنه ينفعك ، ودع الكذب حيث ترى أنه ينفعك فإنه يضرك .

ومهما ظنّ التاجر أن بالكذب ينفق بضاعته فإنه موهوم ، فقد جاء في الأثر : « ما أَمْلَقَ[1] تاجرٌ صَدوقٌ » .

ضرر الكذب :

وقد حذّر النبي ﷺ من الكذب تحذيرا شديداً ، وبين أن كل الخصال قد توجد في المسلم ، إلا الكذب فإن المسلم لا يكذب ، وقد سأل أبو الدرداء ﵁ النبي ﷺ :يا رسول الله هل يسرق المؤمن ؟ فقال ﷺ : قد يكون ذلك ، فقال : هل يزني المؤمن ؟ قال ﷺ : بلى وإن كره أبو الدرداء ، فقال : هل يكذب المؤمن ؟ فقال ﷺ : إنما يفتري الكذب من لا يؤمن » وفي رواية : « لا إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون »

---

(١) أَمْلَقَ أي : افْتَقَرَ .

وخصّ ﷺ بالتحذير الذين يفترون الكذب ليضحكوا به الناس في مجالسهم ، قال ﷺ : « ويل للذي يحدث الحديث يضحك به القوم فيكذب ، ويل له ويل له . »

وبيّن أن الكذب الجائز منحصر في ثلاثة مواضع ، وهي : الحرب ؛ لأن الحرب خدعة ، والرجل يصلح به بين اثنين ، والرجل يصلح به بينه وبين امرأته .

ولا ريب بأن الكذب باب الآثام كلها ، وهو من أخطر الخصال وأقبحها ، روي أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال له : ابتليت بثلاث من المعاصي لا أصبر عنهن : الكذب والزنا وشرب الخمر ، فقال ﷺ أما الكذب فدعه ، فغاب الرجل فاستقبله الزنا ، فقال في نفسه أرتكب الزنا ثم يسألني النبي ﷺ هل زنيت ؟ فإن قلت نعم ضربني الحد ، وإن قلت لا نقضت العهد ، فترك الزنا ، ثم استقبل شرب الخمر فتأمل وقال مثل ذلك ، وتركه فعلم أن الكذب أصل المعاصي كلها !

وقال محمد بن الهروي رحمه الله : أعظم المصائب خصلتان : ترك الصدق مع عرفان ثوابه ، والإقامة على الكذب مع عرفان عقابه !

كلمات في الصدق :

وقد قيل في الصدق وعظمته كلام نفيس ، من ذلك :

١ . كان شقيق البلخي رحمه الله يقول : مثل المريد الصادق مثل رجل غرس نخلا وهو يخاف أن تطرح شوكا ، ومثل المريد الكاذب مثل رجل غرس شوكا وهو يطلب أن تحمل له رُطَباً .

٢ . وسئل أبو الفتح الموصلي رحمه الله عن الصدق ، فأدخل يده في كير الحداد وأخرج الحديدة المحماة ووضعها على كفه وقال هذا هو الصدق .

٣ . وقيل : الصادق هو الذي يتهيأ للموت ولا يستحي من سره لو كشف ، قال تعالى : ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ « الجمعة ٦ » ،

فلو كان العبد صادقا في استعداده للموت لما أزعجه قدومه في أي وقت أتاه ، لعدم وجود ما يستحي من عرضه على الله تعالى .

٤ . و قال ذو النون ﵁ : الصدق سيف الله ، ما وضع على شيء إلا قطعه .

٥ . وقيل : من لم يؤد الفرض الدائم لا يقبل منه الفرض المؤقت ، فقيل وما الفرض الدائم ؟ قال : الصدق .

٦ . وقيل : علامة الكذاب جوده باليمين بغير مُسْتَحْلِف .

٧ . وقيل : لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره .

٨ . وقيل في قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ « التوبة ١١٩ » : يا أيها الذين آمنوا من أهل الكتاب كونوا مع الصادقين المسلمين ، أي استديموا الإيمان في الدنيا بالصدق تكونوا غدا مع الصادقين فى الجنة .

٩ . ويقال : الصدق نهاية الأحوال ، وهو استواء السّرّ والعلانية ، وذلك عزيز .

والصدق كما يكون فى الأقوال يكون فى الأحوال ، وهو أتمّ أقسامه .

الفصل السابع : الصبر وترك الانتصار لحظ النفس

حقيقة الصبر :

وأما الصبر فهو التَّجَلُّد[١] وحسن الاحتمال ، وترك الشكوى وضبط النفس وكظم الغيظ والشجاعة وسعة الصدر ، و قال ذو النون ﵁ : الصبر هو التباعد عن المخالفات ، والسكون عند تجرع غصص البلية ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة ، والاستعانة بالله تعالى ، وعلامة الصبر أن يكون العبد بين أصحابه ولا تُفَرِّق بينهم وبينه وهو في غمرة البلاء ، وقيل : علامته أن تستوي عنده النعمة والنقمة .

(١) التجلّد هو التّقَوّي .

فضل الصبر وثوابه :

لقد خصّ الله تعالى الصابرين بأجر عظيم فقال تعالى : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ « الزمر ١٠ » ، وأمر نبيه ﷺ بالصبر الجميل فقال : ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ « المعارج ٥ » ، و الصبر الجميل أن يكون صاحب المصيبة في القوم ولا يدري أحدٌ من هو ، وأمر المؤمنين بالصبر مع النفس والمصابرة مع الخلق فقال تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ ﴾« آل عمران ٢٠٠ » ، وبيّن الحق تعالى أن الصبر لا يكون إلا بتوفيق الله تعالى العبدَ إليه ، فقال تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ .

وبيّن رسول الله ﷺ فضيلة الصبر بقوله : « الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله » ، و قال ﷺ : « الصبر والاحتساب أفضل من عتق الرقاب » ، و قال ﷺ : « نعم سلاح المؤمن الصبر والدعاء » و قال ﷺ : « أفضل العبادة انتظار الفرج من الله عزّ وجلّ » ، وقال علي كرم الله وجهه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .

من جميل ما قيل في الصبر :

وقد نقلت عن العلماء كلمات في بيان فضل الصبر وحقيقته ، أحببنا أن نسوق لك بعضا منها :

١ . قال الجنيد قدس سره : الصبر تجرع المرارة من غير تعبيس

٢ . وقال ابن عطاء الله قدس سره : الصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب .

٣ . وقيل : الصبر المقام مع البلاء بحسن الصحبة كالمقام مع العافية .

٤ . وقال الخوَّاص قدس سره : هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة .

٥ . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : الصبر مطية لا تكبو .

٦ .أنواع الصبر :

وللصبر أنواع كثيرة ، منها :

الصبر على النفس : وقد كان الشيخ الشاذلي ﷺ يقول : من أراد أن يهجر أحدا من إخوان السوء فليبدأ بنفسه وليهجر أخلاقها السيئة فإن نفسه أقرب الأقربين إليه والأقربون أولى بالمعروف

ومنها الصبر على البلاء : بأن لا تعترض على التقدير ، فأما إظهار البلاء على غير وجه الشكوى فلا ينافي الصبر ، قال عمر ﷺ : لو كان الصبر والشكر بعيرين لم أبال أيهما ركبت ، وسئل رسول الله ﷺعن الإيمان فقال : « الصبر والسماحة » .

ومنها الصبر على المعسر[1] : قال ﷺ : « الصبر على المعسر صدقة يدفع الله بها سبعين بابا من البلاء عن نفسه وولده وماله » .

ومنها الصبر على أذى الناس : وهو باب عظيم من أبواب الصبر تحدث عنه العلماء وبين أهميته أهل التصوف لمكانه العظيم في الطريق إلى الله تعالى .

فضل الصبر على أذى الناس :

اعلم ان الواجب على المريد أن يحسن ظنه بأخيه ، و مادام المريد يسيء الظن بأحد من الخلق فهو دليل على نجاسة باطنه ، ومتى انتصر المريد لنفسه وأجاب عنها فاعلموا أن الله تعالى لم يُرِدْ أن يؤهِّله لأن يكون من أهل حضرته ، ولقد كان التابعون يُؤذَون ويُظْلَمُون ، وما أقل استعجالهم ودعاءهم على الظالمين لمعرفتهم بالله رب العالمين ، وإن دعا منهم داع فبإذن من الله لا عن ضيق وسخط ، قال الشاذلي ﷺ : هممت أن أدعو على ظالم فنوزعت في ذلك فرأيت أستاذي ﷺ يقول : إن تشأ إهلاك ظالم فلا تستعجل ، فالاستعجال بالإهلاك للأعداء وإرادة النصر للأولياء من الشهوة الخفية ، ومن أظلم ممن

(١) المُعْسِر هو المدين الذي لا يجد ما يسدّ به دينه .

ينازع إرادة مولاه ويتَّبِع شهوة نفسه وهواه ، ومن المعلوم أنه إذا انتصر الفقير لنفسه وأجاب عنها فهو والتراب سواء ، وأن من أجاب عن نفسه فقد هلك مع الهالكين ، ومن رضي عنها فقد خسر خسراناً مبيناً .

فإذا كان كذلك وكثرَ من يريد الاختلافات ويوقع الخلافات ، فالمرجو منكم مسامحة أولئك الحسدة الذين يبارزونكم ، وأن تتركوهم سدى ؛ تحذيراً للأولياء من مسِّ أنفاس الظلمة المبتدعين(١) ، الذين يَظُنُّون أنَّهم في عداد الأذكياء ، ويقدحون بأفهامهم الفاسدة فيما لايفهمون ، ويخوضون بقلَّة تقواهم فيما لا يعلمون ؛ لاهم وقفوا عند نصِّ القرآن ، ولاهم امتثلوا ماروي عن سيد ولد عدنان ﷺ ، ولاهم جنحوا إلى طريقة جارية على قانون الحقِّ والعرفان .

والمقصود الصبر ، وتوكيل الأمر إلى الله وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولا بدَّ لكلِّ موسى من فرعونٍ ، ولكن الله غالبٌ على أمره .

حاجة الناس إلى الصبر على الأذى :

اعلم يا بنيّ أنه ينبغي الاعتناء في هذه الأزمنة بضرورة الصفح عن شرِّ الناس ، فمن تمنَّى بقلبه ، أو أراد تحريكَ الشرِّ منه على الناس سلَّطهم الله تعالى عليه من وجه لا يقدر على دفعهم ، وعلى العبد أن يسأل الله تعالى العافية من تحريك شرِّ الناس وفتنتهم ، فإن تحرَّك عليه مِن غير سبب منه ! فالوجهُ الأعلى الذي تقتضيه رسومُ العلم مقابلَتُهم بالإحسان في إساءتهم ، فإن لم يقدر ! فبالصفح والعفو عنهم إطفاءاً لنيران الفتنة ، فإن لم يقدر ! فبالصبر لثبوت مجاري الأقدار ، ولا يتحرَّك في شيء من إذايتهم ، وإن اشتعلت عليه نيرانُ شرهم ! فليدافع بالتي هي أحسن بلين ورفق ، فإن لم

(١) مسّ أنفاس الظلمة اي : ترديد أقوالهم أو الرد عليها ، وقد قيل في المحدّثين :
أهلُ الحديث همُ صحب النبي وإن لم يصحبوا نفسَه أنفاسَه صحبوا .

يقدر ! فعليه بالخروج إن قدر ، والهرب عن مكانه ، فإن عوَّقت العوائقُ عن الارتحال ؛ ولم يجد قدرة فليدافع بالأقلِّ فالأقل من الاذايَة ، فليفعل ذلك ظاهراً ، وليكثر التضرُّع إلى الله تعالى والابتهال سرّاً في دفع شرِّهم عنه مداوماً على ذلك حتَّى يفرِّج الله تعالى عنه ، فإنَّ هذه الوجوه التي ذكرناها هي التي تقتضيها رسومُ العلم .

والحذر الحذر لمن تحرَّك عليه شرُّ الناس منكم أن يبادر إليه بالتحرك بالشرِّ لمقتضى حرارة طبعه ، وظلمة جهله ، وعزَّة نفسه ، فإن المبادر للشرِّ بهذا ؛ وإن كان مظلوماً فاضَتْ عليه بحورُ الشرِّ من الخلق يستحقُّ بها الهلاك في الدنيا والآخرة ، وَتِلْكَ عقوبته لإعراضه عن جناب الله تعالى أولاً ، فإنه لو فزع إلى الله تعالى بالتضرُّع والشكاية ، واعترف بعجزه وضعفه لَدَفع الله تعالى عنه ضرر الخلق بلا سبب ، أو بسبب لا تعب فيه ، أو يشغلهم الله تعالى بشاغل يعجزون عنه ، فإمَّا أن يفعل الله له هذا ، وإما أن ينزل عليه اللطف العظيم ، والصبر الجميل ، فيكابد غصص تلك الشرور بما هو فيه من اللطف والصبر ؛ حتى يَرِدَ عليه الفَرَجُ من الله تعالى ، فيكون مثاباً دنيا وأخرى ، أما ثواب الدنيا ! فبحمد العاقبة وظهور تَصَبُّرِه في الخلق على قدر رتبته ، وأما ثواب الآخرة ! فبالفوز بما لا غاية له من ثواب الصابرين الذي وعد الله تعالى ، قال سبحانه وتعالى ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ « الأعراف ١٣٧ » ، وقال تعالى ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ « النحل ١٢٦ » إلى غير ذلك من الآيات ، ولعَدَم اعتبار الناس لما ذكرنا ترى الناس أبداً في عذاب عظيم من مكابدة شرور بعضهم بعضاً ، وَوَقَعُوا بذلك في المهالك العظام في الدنيا والآخرة ، إلاّ مَن حفَّتهم عنايةٌ عظيمة من الله تعالى ، فإن العامَّة لا يرون في تحريك الشرّ عليهم إلاّ صورة الشخص الذي حرَّكه عليهم ؛ لغَيبتهم عن ذكر الله تعالى ، وعن غالب حِكَمه ، فنهضوا في مقابلة الشرور بحولهم واحتيالهم وصولة سلطان نفوسهم ، فَطَالَتْ عليهم مكابدةُ الشرور ، وحُبسوا

في سجن العذاب على تعاقب الدهور ، فإنَّ الكيِّسَ العاقل إذا نُصب عليه الشرُّ من الناس ؛ رآه تجلَّياً إلهيّاً لا قدرةَ لأحدٍ على مقاومته إلا بتأييد إلهي ، فكان مقتضى ما دلَّه عليه علمُه وعقلُه الرجوعُ إلى الله تعالى بالهرب والالتجاء إليه ، وتتابع التضرُّع والابتهال لديه ، والاعتراف بعجزه وضعفه ، فنهض معتصماً بالله تعالى في مقابلة خلقه ، فلا شكَّ أنَّ هذا تدْفع عنه الشرور بلا تعب منه ، ولو التهَبَتْ عليه نيرانُ الشرِّ من الخلق لعجزوا عن الوصول إليه ؛ لاعتصامه بالله تعالى ، فإن مَن تعلَّق بالله تعالى لا يقوى عليه شيءٌ .

وهذا الباب الذي ذكرناه **كلُّ الخلق محتاجون إليه في هذا الوقت** ، فمن أدام السيرَ على هذا المنهاج سعد في الدنيا والآخرة ، ومن فارقه وكَّلَه الله تعالى إلى نفسه ، فنهض إلى مقابلة الشرور بحوله واحتياله ، فهلك كلَّ الهلاك في عاجله وآجله ، فليرفع الأمر إلى الله تعالى قبل أن يعلم بها الناس ، هكذا عادة الله تعالى مع من يتعلق به أوَّل مرة فاعمل على ذلك ، فإنه الكبريت الأحمر ، والفرج القريب ، والمعين على ذلك الصبرُ .

ما يعين على الصبر :

ولقد دلّنا النبي ﷺ على بعض الأذكار والأدعية التي تعين المسلم على الصبر في حياته ، فقال ﷺ : « من قال عشر كلمات عند كل صلاة غداة وجد الله عنده مكفياً وعليه راضياً ؛ خمساً للدنيا ، وخمساً للآخرة ، حسبي الله لديني ، حسبي الله لما أهمني ، حسبي الله لمن بغى عليَّ ، حسبي الله لمن حسدني ، حسبي الله لمن كادني بسوء ، حسبي الله عند الموت ، حسبي الله عند المسألة في القبر ، حسبي الله عند الميزان ، حسبي الله عند الصراط ، حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو ربّ العرش العظيم وإليه أنيب » .

وقال ﷺ راويا عن ربه تعالى في الحديث القدسي : « وعزتي وجلالي لا ينتصر بي عبدٌ من عبيدي أعلم ذلك من قلبه يقينا ، فيكيده أهل السّموات وأهل

الأرض إلا نصرته عليه » وعن أنس ﷺ قال : كان أكثر دعاء النبيّ ﷺ « اللهم آتنا في الدّنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » ، وقال رسول الله ﷺ « من قرأ آية الكرسيّ وخواتيم سورة البقرة عند الكرب أغاثه الله عزّ وجلّ » ، و قال رسول الله ﷺ : « إني لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرج عنه ، كلمة أخي يونس ﷺ ؛ فنادى في الظلمات أن : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » وقال رسول الله ﷺ : « دعوة ذي النون إذ دعا ربّه وهو في بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين . لم يدع رجُلٌ مسلم في شيء قط إلاّ استجاب له » .

إِنْ الحُكْمُ إلّا لله :

اعلم أنَّ الأمر كله لله تعالى وحده ، وما الخلق إلا صورٌ يحرّكها الحق كيفما يشاء ، وإن من تنبّه إلى هذه الحقيقة لم يغضب من عبدٍ على فعلٍ فعله به ، لعلمه أن الفاعل الحقيقي هو الله تعالى لا سواه ، وقال القطب الشيخ عبد الوهاب الشعراني ﷺ في « المنن الكبرى » : وممّا أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ مبادرتي لإقامة العذر لمن آذاني دون اللوم عليه وَمُقابلته بنظير فعله ، وَذلك لعلمي بأنه ما آذاني بقول أو فعل إلا بإرادة الله تعالى بعد تقدّم وقوعي في ذنب يوجب ذلك ، وكان مَطْمَحُ بصَري حضرة الإرادة الإلهية دون حضرات الخلق ، ومن كان هذا مشهده لا يصحّ منه تكدُّر ممّن أذاه ، ولا سَخَطٌ على مقدّرٍ من مقدّرات الحق تبارك وتعالى ، فأمّا عدم تكدّره من الخلق فلكونه يشهدُ أنّ الخلق كلهم لا يتحركون ولا يسكنون إلا وهم تحت الإرادة الإلهيّة ، فهم كالسوط الذي يضرب به الضارب أحداً ظلماً ، فالعاقل لا يترك إضافة الضرب للفاعل الحقيقي ويضيفَ ذلك إلى السوط ، وأمّا عدم سخطه على شيء من مقدَّرات الحق ؛ فلكونه يشهد أن ذلك فعل حكيم عليم أرحم به من والدته على الكشف والشهود .

فعلم أنه لا يصحّ التكدُّر من عبد آذاه أحد إلاّ إن كان مشهده أن ذلك من فعل الخلق ، وتأمّل يا أخي إذا وقع العبد في معصية وهُتِكَ بين الناس ، كيف يجد قلبه قد تفتت من القهر وشدة الندم ؟ ! فإذا شهد أن ذلك كلّه كان بتقدير الله عليه قبل أن يخلق يخفُّ عليه ذلك الألم .

وكذلك فاز من شهد أنّه لا فاعل حقيقة في الدارين إلا الله جل وعلا ، فإنه يتنعّم بكلّ فعل وقع له ؛ كالحكم في حال زبانية جهنّم يوم القيامة حين يكشف الغطاء عن كلّ عاصٍ لا يضيف إليهم أحدٌ فعلاً ، ولا يسمّيهم ظَلَمَة كما في الدنيا أبداً ، بل يراهم كالمجبورين ، فالكامل يرى جميعَ مَنْ ظَلمه في دَار الدنيا تحت القضاء والقدر ، ولا يضيف إليهم ظلماً قطُّ إلا بقدر نسبة التكليف لا غير[1] .

وقال الإمام الشعراني ﷺ أيضا : وممّا أنعم الله تبارك وتعالى عليّ عدم إتعاب سرّي في تدبير حيلة تؤذي من أذاني بقول أو فعل كما يقع فيه كثير من الناس ، فربما سهر أحدهم الليلة كاملة يدبّر في الحيل التي تؤذي عدوّه .

ثم لا يخفى عليك يا أخي أنّ أقبح شيء يقع فيه العالم أو الصالح مُقابَلته بالأذى لمَنْ يؤذيه ، أو يكشف سوأته للناس ولو بحق فضلا عن الزّور والبُهتان ، فإن الله تعالى سَتيرٌ ويحبّ من عباده الستارين ، فكما أنّ الحقّ تبارك وتعالى يرى العيب من عبده ويستره ، فكذلك ينبغي لعبده أن يفعله .

فمن الأدب مع ذلك مسامحة العدوّ فيما فعل ، وسؤال الله تبارك وتعالى أن يعفو عنه ، وكان علي الخواص ﷺ يقول : إذا آذاك إنسان أو نقصك بين الناس ، فخذ ذلك من باب تنبيهات الحقّ لتتفكَّر في ذنوبك ، وتأخذ في التوبة والندم على ما فعلته من الزلات ، وإياك أن تتفكر في نقائص مَن نقصَك .

---

(١) المراد بالتكليف إلزام الله تعالى للعبد ما فيه كلفة ومشقة من فعل المأمورات وترك المنهيّات .

واعلم يا أخي أنك لولا خروجك من حضرة ربّك عزّ وجلّ لَمَا سلّط عليك أحداً ؛ لأنّ من كان في حضرة الحق تبارك وتعالى ، ويَعْلم أنه يراه فليس لأحد من الجنّ والإنس عليه سبيلٌ .

قال الشعراني ﷺ : وممّا أنعم الله تعالى به عليّ مبادرتي إلى إقامة الحجة على نفسي دون الله عزّ وجلّ إذا ظلمني ظالم ، فعلم أن الظالم ما ظلمنا إلا بذنوبنا ، وذلك في الحقيقة جزاءٌ على أعمالنا لا ظلم لنا ، فلو رقَّت حُجُبُنا لرأينا حكم الظلمة في هذه الدار حكم زبانية جهنم على حدّ سواء ، لكن لا بدّ من نسبة الظلم إلى من ظَلَمنا في هذه الدار لأجل نسبة التكليف بخلاف الزبانية ، فإنّهم ليسُوا في دار التكليف .

فمن أراد أن لا ينزل بَلاءٌ ولا يسلّط عليه أحدٌ فليسدّ الباب الذي يدخل منه الجزاء الّذي يسوءه ، وذلك بترك المعاصي جملة[١] .

وقد قالوا : من عقل العاقل إذا أراد أن ينزح حوضاً[٢] من الماء المُنْتِن أن يسدّ الميزاب الّذي ينزل ذلك الماء ثم ينزحه ، وإلا فكلّ شيء نزحه نزل من الميزاب بدله ، فليس لمن يدّعي أنه مظلوم دواء أنفع له من كثرة الاستغفار ، وليس لمن أغضب ربّه دواء إلا الاستغفار .

فعُلم أن قول العبد إذا وقع في معصية (أيْش أعمل ، هذا كان مقدّراً عليّ قبل أَنْ أخلق) سوء أدب مع الله تبارك وتعالى لما فيه من رائحة عدم إقامة الحجّة على نفسه .

(١) اعلم أن العبد تارة يبتلى بعقوبة مقابلة لجريمة ارتكبها ومعصية اقترفها ، وأخرى يبتلى بها تكفيرا وتمحيصا ، وأخرى يبتلى بها لارتفاع الدرجات وتبليغ المنازل العاليات ليلحق بأولي العزم من أهل الحالات والمقامات : فعلامة الابتلاء على وجه العقوبة عدم الصبر عند وقوعها ، والجزع والشكوى إلى الخليقة ، وعلامة الابتلاء تمحيصاً وتكفيراً للسيئات وجود الصبر الجميل من غير شكوى وإظهار الجزع إلى الأصدقاء والجيران ، وعلامة الابتلاء لارتفاع الدرجات وجود الرضا وطمأنينة النفس .

(٢) نزح الحوض أي : أفرغ ماءه .

وقال الشعراني ﵁ : وممّا أنعم الله تبارك وتعالى عليّ عدَمُ اشتغالي بمُقابَلة من آذاني ، وتنقيص مَن نقصني ، وإنما اَرْجعُ إلى تفتيش نفسي ، وأكثر من الاستغفار ، والاشتغال بالله عزّ وجلّ ، وشهودي أنّني جالس بين يدَيْه تعالى ، وهو يرى صنيع عبيده فيّ ، ومن كان مشهده هذا حمل أذى الثقلين ، وأيضاً فإني أعلم أن الحق تعالى لا يسلّط الخلق بالأذى على أحد وهو حاضرٌ بين يديه أبداً ، وإنه ما سلّط على أحد بالأذى إلاّ لغفلته عنه ، ولذا قالوا : إذا اشتغل الناس بك فاشتغل أنت بربهم ، فإن بيده زمام أمورهم ، ولا تقابلهم تتعب وتزدد من الأذى .

كثرة الأذى من أشراط الساعة :

واعلم أن النبي ﷺ قد أخبر بأن من علامات الساعة كثرة الأذى وانتشار الظلم بين الناس ، فعليك بالصبر فقد أوصى به النبي ﷺ أصحابه حين استوصوه ، قال رسول الله ﷺ : « للساعة أشراط ، قيل : يا رسول الله ما أشراطها ؟ قال : علوُّ أصوات الفسق في المساجد ، وظهور أهل المنكر على أهل المعروف ، فقال أعرابيّ : فما تأمرني يا رسول الله ؟ قال : دع ما تنكر وخذ ما تعرف ، و كن جليس بيتك » .

وفي رواية : قيل : يا نبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألوننا حقهم ويمنعوننا حقنا فما تأمرنا ؟ قال : « اسمعوا وأطيعوا ، فإنما عليهم ما حُمِّلوا وعليكم ما حُمِّلْتُم[١] ، وأعطوهم ما يطلبون منكم ظلماً منهم ، ولا تطلبوا حقوقكم منهم كرهاً ، وإن لم يعطوا حققوكم فلا تحاربوهم ، بل اتركوها ، واسألوا الله الثواب على ما يطلبونكم ، لهم ما كسبوا ولكم ما كسبتم » .

---

(١) عليهم ما حُمِّلوا من إقامة العدل فإن لم يفعلوا فعليهم الوزر ،وعليكم ما حُمِّلتم من السمع والطاعة فإن قمتم بها فالله تعالى يجزيكم .

وقال رسول الله ﷺ : « يكون عليكم أمراء تعرفون وتنكرون[١] ، فمن أنكر فقد برئ ، ومن كره فقد سلم ولكن من رضي وتابع ، قالوا : أفلا نقاتلهم ؟ قال : لا ما صلّوا ، ما صلّوا » فقد أخبر ﷺ في هذا الحديث عن أمراء آخر الزمان وأن بعض أفعالهم يكون حسنا يعرفه الناس ، وبعضها يكون سيئا ينكره الناس ، فمن أنكر المنكَر بلسانه إن قدر على ذلك فقد برئ من النفاق ، ومن أنكره بقلبه وكرهه فقد سلم من مشاركتهم في الوزر ، ولكن من رضي بالمنكر وتابعهم عليه بالفعل فهو شريكهم في المعصية والعقوبة .

وقال رسول الله ﷺ « يكون في آخر الزمان قوم وجوههم وجوه الأدميين وقلوبهم قلوب الشياطين ، أمثال الذياب الضواري ، ليس في قلوبهم شيء من الرحمة ، سفَّاكون للدماء ، لا يرغبون عن قبيح ، إن تابعتهم ركبوك ، وإن تواريت عنهم اغتابوك ، وإن حدَّثوك كَذَبوك ، وإن ائتمنتهم خانوك ، صبيّهم عارم[٢] وشبّانهم شياطين ، وشيخهم لا يأمرك بالمعروف ولا ينهى عن المنكر ، الاعتزاز بهم ذل ، وطلب ما في أيديهم فقر ، الحليم فيهم غاوٍ[٣] ، والصادق فيهم متَّهم ، والمؤمن فيهم مُسْتَضْعَف[٤] ، والفاسق فيهم مُشرَّف ، والسنة فيهم بدعة ، والبدعة فيهم سنة ، فعند ذلك يُسلَّط عليهم شرارهم ، فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم » .

ولم ينقض قومٌ عهد الله وعهد رسول الله ﷺ إلا سلّط الله تعالى عليهم عدوّهم ، فأخذوا بعض ما كان في أيديهم ، وإذا لم يحكم أميرهم بكتاب الله تعالى جعل الله تعالى بأسهم بينهم .

وقد قال ﷺ :« من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو مؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس الذي يحبّ أن يُؤتى إليه » .

(١) تعرفون وتنكرون : أي بعض أفعالهم معروف وبعضها منكر في الشريعة لديكم .
(٢) العارم هو المؤذي .
(٣) غاوٍ أي : ضالٌ منقادٌ للهوى .
(٤) مستَضعَف أي : ذليل .

فإن المرء لا يملك أمر خاتمته أن تكون على الإيمان أو غيره ، وأمر الخواتيم إلى الله تعالى ، لكن المقصود أن يفعل ما يكون سببا لحسن خاتمته وموته على الإيمان بالله واليوم الآخر ، كما ورد في الحديث : « يموت المرء على ما عاش عليه ، ويبعث كل عبد على ما مات عليه » ، فعلى العبد أن يحسن ظنه بالله تعالى مع أخذه بأسباب حسن الختام ، وأن يصبر على أذى الناس ويفعل معهم ما يحب أن يفعَلوا معه ، ويحسن إليهم كما قال ﷺ « الخلق عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله » وبذلك يضمن له النبي ﷺ أن يزحزحه الله تعالى عن النار ويدخله الجنة .

وقال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تَقْتَتِلَ فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتهما واحدة ، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين ، كلّهم يزعم أنه رسول الله ﷺ وحتى يقبض العلم ، وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ، وتظهر الفتن ويكثر الهرج ؛ وهو : القتل ، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهمّ رب المال من يقبل صدقته وحتى يعرضه ، فيقول الذي يعرضه عليه ، : لا إرب لي فيه ، وحتى يتطاول الناس في البنيان ، وحتى يمرّ الرجل بقبر الرجل فيقول : ياليتني كنت مكانه » .

الخير في تَحَمُّل الأذى :

واعلم أن المنافق كثير الشكوى قليل البلوى قليل المعنى[1] كثير الدعوى ، وقد أوصى الصالحون أتباعهم بالصبر على أذى الخلق حتى قال أحدهم لتلميذه : اصبر على قرصة البعوضة والعقرب ، ليحصل لك الإدمان على تحمل الأذى من غيرهم ، ورأى يوما مريدا يقتل بعوضةً فقال له : كيف تطلب طريق أهل الله تعالى وأنت تشفي غيظك بقتل البعوضة ولا تصبر على قرصتها ؟ !

---

(١) قليل المعنى أي : قليل الفائدة .

وكان أحد المشائخ يقول : أعظم أخلاق المريدين حفظ حرمات الإخوان ، وحسن العشرة معهم ، ومجانبة الادخار للثياب والطعام والدراهم .

وحين حبُس الشبلي ﵁ وقتا في المارستان[١] جاءه جماعة ، فقال من أنتم ؟ فقالوا : أحباؤك جاؤوك زائرين ، فأخذ يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون ، فقال : يا كذابون ! لو كنتم أحبائي لصبرتم على بلائي .

وقال أحدهم : إن استطعت أن لا تغضب لشيء من الدنيا فافعل .

الفصل الثامن : الخوف والرجاء

اعلم أن الرجاء يكون عند وجود أسباب الفلاح وطرق النجاح ، والغرور عند عدم أسباب النجاح والفلاح ، أما الخوف فهو سراج القلب به يبصر ما فيه من الخير والشر ، واللازم أن تكون كلَّ وقت بين الخوف والرجاء ؛ لئلا يدركك الاستدراجُ ، كما هي وصيَّةُ السادات من شيخ إلى شيخ ، وإن الخائف لا يراه إلا الخائفون ، وإنَّ الثَّكْلى[٢] هي التي تحب أن ترى الثَّكْلى ، قال ﷺ : « لا يدخل النار من بكى من خشية الله ، حتى يلج الجمل في الضرع »

واعلم أن لكل شيء زينة ، وزينة العبادة الخوف ، و لما ظهر إبليس على ما ظهر طفق جبريل وميكائيل يبكيان طويلا ، فأوحى الله تعالى إليهما : مالكما تبكيان كل هذا البكاء ؟ فقالا : يا ربنا لا نأمن مكرك ، فقال الله تعالى : هكذا كونا ، لا تامنا مكري .

والحقُّ أن الكامل لا يحكم على الله بشيء[٣] ولو بلَّغه أعلى المقامات ، وقال له : رضيت عنك رضاي الأكبر ، بل يبقى الخوف من مكر الله تعالى ملازما له .

---

(١) المارستان هو المستشفى .
(٢) الثكلى هي المرأة التي فقدت ولدها .
(٣) أي لا يأمن مكر الله تعالى .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ « المؤمنون ٦٠ » قال العلماء : أي : الذين يعطون ما أعطوه من الزكوات والصدقات وقلوبهم خائفة أن لا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصّروا في القيام بشروط الإعطاء ،أو أن لا يكون قد وقع الإعطاء على الوجه اللائق ، وحين سئل رسول الله ﷺ : يا رسول الله ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ أهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر ؟ فقال : « لا ولكن الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه »[١] .

وقد قال الإمام الشعراني قدس سره : أخذ علينا العهود أن نميل إلى الضعف في كل أحوالنا دون القوة ، وبتقدير مرتبة العرفان فإن من شرط العارف شدة الخوف ، قال ﷺ : « أنا أعرفكم بالله وأخوفكم منه » .

وأخذ علينا العهود أن نلحَّ بالاستغاثة عند حلول البلاء ، ونسأل الله تعالى الإقالةَ[٢] ولا نتجلّد ولا نتصبّر كما يفعل بعضهم ، فإن ذلك كالمقاومة للقهر الإلهي ، وربما زاد المرض والألم علينا حتى يَفنى بصبرنا فنسألُ الله تعالى الفرَجَ بفرارنا إلى مواطن العجز ، وإظهارُ التألم من قرصة البعوضة أولى ، فإن الله تعالى يحب من عباده إظهار الضعف وكثرة سؤال العفو والعافية .

الفصل التاسع : الرحمة

اعلم يا ولدي أن الله أرحم بعبده من والديه ، و أنه ينبغي لكل شخص مريد رحمةَ الله أن يرحم أخاه ، قال كعب الأحبار : مكتوب في الإنجيل : يا ابن آدم كما تَرْحم كذلك تُرْحم ، فكيف ترجو أن يرحمك الله وأنت لا ترحم عباد الله ؟ !

---

(١) فقد أشكل على الصحابة رضي الله عنهم قول الله تعالى حين أخبر عن الذين يتصدّقون وينفقون وقلوبهم خائفة من الله تعالى ، وظنوا بأن سبب خوفهم ذنوبهم التي قد تمنعهم من قبول أعمالهم ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين لهم أن سبب الخوف ليس الذنوب ، بل قربهم من الله تعالى زادهم خوفا منه عز وجلّ .

(٢) الإقالة هي رفع البلاء .

وقال ﷺ : « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمهُم الرَّحْمَنُ ، اِرْحَمُوا مَنْ في الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ » .

فإياك يا أخي ونهرَ أحد من العصاة إذا سألك عن دوائه ، والدواء المذكور هو الذكر ، وقال الشعراني قدس سره : من لم ينظر للعصاة بعين الرحمة فقد خرج عن الطريق ، ولا تأمر أحدا قط أن يرجع عن معصيته حتى ترحمه بقلبك .

وقد كان النبيّ ﷺ يُلَيِّنُ القول لمن يَرْجُو إسلامَه لأنّه أرجى للهداية ، ومن المعلوم عند أهل الطريق أن الفاسق ضالة كل داع إلى الله ، أَيْنَمَا وجدها يلتقطها .

وقال ﷺ « نظرة في وجه أخ في الله على شوق إليه خير من أجر من اعتكف في مسجدي هذا أربعين سنة » .

وإن رحمة الله تعالى واسعة ، فعن داوود عليه السلام قال الله تعالى : إني لِأغفر لألف أحب إلي من أن أعذب واحداً بالنار لأني غفور رحيم .

وحكي أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ وحكى بين يديه أن امرأة سقط ولدها من السطح عن يدها فرمت المرأة نفسها من السطح شفقة على ولدها ، فقال ﷺ : إن الله أشفق على أمتي من تلك المرأة على ولدها .

أهل التصوف هم أهل الرحمة :

وقال الشيخ السهروردي في « عوارف المعارف » : ومن أخلاق الصوفية التودد والتألف والموافقة مع الإخوان وترك المخالفة . قال تعالى في وصف أصحاب رسول الله ﷺ : ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ الفتح : ٩٢ ، وقال تعالى : ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡ﴾ الأنفال : ٣٦ ، وإن التودد والتألف من ائتلاف الأرواح على ما ورد في الخبر : « فما تعارف منها ايتلف وما تناكر منها اختلف » ، وقال النبي ﷺ : « المؤمن آلف مألوف ولا خير

فيمن لا يألف ولا يؤلف » ، وقال ﷺ : « مثل المؤمنين إذا التقيا مثل اليدين يغسل إحداهما الأخرى ، وما التقى المؤمنان إلا استفاد أحدهما من الآخر خيرا » .وقال أبو إدريس الخولاني لمعاذ : أحبك في الله . فقال : أبشر ثم أبشر ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ينصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة ، وجوههم كالقمر ليلة البدر ، يفزع الناس ولا يفزعون ، ويخاف الناس ولا يخافون ، وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . فقيل : من هؤلاء يا رسول الله ؟ قال : « المتحابون في الله » .

ولهذا المعنى كانت صحبة الصوفية مؤثرة من البعض للبعض ، لأنهم لما تحابوا في الله تواصوا بمحاسن الأخلاق ووقع القبول لوجود المحبة ، فانتفع لذلك المريد بالشيخ والأخ بالأخ . ولهذا المعنى أمر الله تعالى باجتماع الناس في كل يوم خمسَ مرات في المساجد ، كل درب وكل محلة ، وفي الجامع في الأسبوعً مرة أهل كل بلدة ، وانضمام أهل السواد إلى البلدان في الأعياد في جميع السنة مرتين ، وأهل الأقطار من البلدان المتفرقة في العمر مرة في الحج . كل ذلك لحكمة بالغة ، منها تأكيد الألفة والمودة بين المؤمنين ، و لهذا قال ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضهم بعضا » . وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ألا إن مثل المؤمنين في توادّهم وتحابّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى بعضه تداعى له سائره بالحمى والسهر » . والتألف والتودد يؤكد أسباب الصحبة ، والصحبة مع الأخيار مؤثرة .

الفصل العاشر : الغَيْرَة :

اعلم أن الغَيْرة هي كراهية مشاركة الغير ، قال الشبلي قدس سره : الغيرة غيرتان : غيرة البشرية على النفوس ، وغيرة الإلهية على القلوب ، وقال الشبلي قدس سره أيضا : الغيرة الإلهية على الأنفاس أن تُضَيَّع فيما سوى الله تعالى ، و يقال : الغيرة غيرتان : غيرة الحق سبحانه على العبد : وهو أن لا يجعله للخلق ؛ فيضِنّ به

عليهم ، وغيرة العبد للحق : وهو أن لا يجعل شيئا من أحواله وأنفاسه لغير الحق تعالى ، والغيرة لله توجب تعظيم حقوقه وتصفية الأعمال له .

واعلموا أنَّ من سنة الحق تعالى مع أوليائه : أنهم إذا ساكنوا في قلوبهم غيراً ، أو لاحظوا شيئاً ، شوَّش عليهم ذلك ، فيَغارُ على قلوبهم بأن يعيدها خالصة لنفسه ، فارغة عما ساكنوه أو لاحظوه ، كآدم عليه السلام ، لمَّا وَطَّنَ نفسه على الخلود في الجنة أخرجه منها ، وإبراهيم عليه السلام لما أعجبه إسماعيل عليه السلام فلمَّا أَسْلما وتلَّه للجبين ، أمره بذبحه حتى أخرجه من قلبه وصفا سرُّه منه أمره بالفداء عنه .

قال رسول الله ﷺ : « ما أحدٌ أغير من الله تعالى ، ومن غيرته حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » ، و قال رسول الله ﷺ : « إن الله يغار ، وإن المؤمن يغار ، وغيرة الله تعالى : أن يأتي العبد المؤمن ما حرَّم الله عليه » قال العلماء : هذه الغيرة التى جاءت فى هذه الأحاديث فى وصف الله تعالى ليست منه على حسب ما هى عليه فى المخلوقين ؛ لأنه لا تجوز عليه صفات النقص تعالى ، إذ لا تشبه صفاته صفات المخلوقين ، والغيرة فى صفاته بمعنى الزجر عن الفواحش والتحريم لها والمنع منها ؛ لأن الغيور هو الذى يزجر عما يغار عليه ، وقد بين ذلك بقوله عليه السلام : « ومن غيرته حرم الفواحش » ، أى زجر عنها ومنع منها ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ « الأعراف ٣٣ » .

وحكي عن السري السَّقَطي رحمه الله أنه قرئ بين يديه ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ « الإسراء ٤٥ » فقال السري لأصحابه : أتدرون ما هذا الحجاب ؟ هذا حجاب الغيرة ، ولا أحد أغير من الله تعالى ، ومعنى قوله : (هذا حجاب الغَيْرة) يعني : أنه لم يجعل الكافرين أهلاً لمعرفة صدق الدين .

فالحق تعالى غيور ، ومن غَيرته : أنه لم يجعل إليه تعالى طريقاً سواه ، وقيل : أوحى الله ، سبحانه ، إلى بعض أنبيائه : أنَّ لفلان إلي حاجة ، ولي أيضاَ إليه حاجة ، فإن قضى حاجتي قضيت حاجته ؛ فقال ذلك النبي عليه السلام في مناجاته : إلهي ؛كيف يكون لك حاجة ؟ فقال : إنه ساكن بقلبه غيري فليفرغ قلبه عنه أقض حاجته .

وحكى أحد الصالحين قال : بينما أدور في جبل لبنان إذ خرج شاب قد أحرقته الشموس والرياح فلما نظر إلي وَلَّى هاربا مستوحشا ، فقلت : يا أخي تكلم كلمة موعظة لعلي أنتفع بها ، فالتفت إلي كأنه فارٌّ ، وقال : احذروه فإنه غيور ، لا يحب أن يرى في قلب عبده أحدا سواه !

وقال الأستاذ أبو عليٍّ الدقاق رحمه الله : لما دخل الأعرابي مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبال فيه ، وتبادر إليه الصحابة لإخراجه ، قال رحمه الله : إنما أساء الأعرابي الأدب ، ولكن الخجل وقع على أصحابه ، والمشقة حصلت لهم حين رأوا من وضع حشمته ، كذلك العبد إذا عرف جلال قدره سبحانه يشقُّ عليه سماع ذكر من يذكره بالغفلة ، وطاعة من لا يعبده بالحرمة .

الفصل الحادي عشر :الإيثار و الكرم والجود

حقيقة الجود :

اعلم أن حقيقة الجود هي أن لا يصعب عليك البذل ، وقيل : الجود : إجابة الخاطر الأول ، بأن يسرع للبذل متى حدّثته نفسه بذلك ، وكان الدقاق قدس سره يقول : ليس السخاء أن يعطي الواجدُ المُعدَمَ[1] ، إنما السخاء أن يُعطي المعدمُ الواجد ، قال الله عزّ وجلّ :﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ « الحشر٩ » نزلت

(١) الواجد هو الغني ، والمعدَم هو الفقير .

هذه الآية في الأنصار الذين سكنوا المدينة قبل المهاجرين ، حيث كانوا يحبون من هاجر إِلَيْهِمْ من أهل مكة وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مما خُصِّص به المهاجرون من الفيء ، ولا يحسدونهم على ذلك ، ولا يعترضون بقلوبهم على حكم الله بتخصيص المهاجرين ، حتى لو كانت بهم حاجة أو اختلال أحوال(١) ، وقيل نزلت الآية فى رجل منهم أهديت له رأس شاة فطاف على سبعة أبيات حتى انتهى إلى الأول ، وقيل نزلت في رجل منهم نزل به ضيف فقرّب منه الطعام وأطفأ السراج ليوهم ضيفه أنه يأكل ، حتى يؤثر به الضيف على نفسه وعلى عياله ، فأنزل الله الآية في شأنه ويقال : الكريم مَنْ بَنى الدار لضيفانه وإخوانه ، واللئيم من بناها لنفسه ويقال : صاحب الإيثار يؤثر الشبعان على نفسه وهو جائع .

وفي الخبر : « لم يجتمع في الدنيا قوم قط الا وفيهم أسخياء وبخلاء إلا في الأنصار فإن كلهم أسخياء ما فيهم من بخيل » .

قال حذيفة العدوى ﷺ انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعي شيء من الماء وأنا أقول : إن كان به رمق سقيته ، فإذا أنا به فقلت أسقيك فأشار برأسه أن نعم ، فاذا برجل يقول : آه آه ، فأشار إليّ ابن عمي أن انطلق إليه . . . فإذا هو هشام بن العاص فقلت : أسقيك ؟ فأشار أن نعم ، فسمع آخر يقول آه آه ، فأشار هشام أن انطلق اليه ، فجئت إليه فاذا هو قد مات ، فرجعت إلى هشام فاذا هو قد مات ، فرجعت الى ابن عمى فإذا هو قد مات . ! وهذا من قبيل الإيثار بالنفس وهو فوق الإيثار بالمال ، وقال في التكملة : الصحيح أن الآية نزلت في أبى طلحة الأنصاري ﷺ حين نزل برسول الله ﷺ ضيف ولم يكن عنده ما يضيفه به فقال : « ألا رجلا يضيف هذا رحمه الله ؟ » فقام أبو طلحة فانطلق به إلى رحله وقال لامرأته : أكرمي ضيف رسول الله ، فنومت الصِّبْيَة ، واطفأت السراج وجعل الضيف يأكل ،

(١) الاختلال هو الفساد والاضطراب والضعف .

وهما يُريان أنهما يأكلان معه ولا يفعلان فنزلت الآية ، وكانت قناعة[١] السلف أَوفر ، ونفوسهم أقنع وبركتهم أكثر .

ويروى أن ملكا قال لوزيره : إن العلماء أحسن حالا وأصلح بالاً من الفقراء ، وقال الوزير بخلاف ذلك ، ثم قال الوزير : نمتحنهما فى أمرين :

١ . فبعث أحدا بعدة آلاف درهم إلى أهل المدرسة ، فقال : اذهب وقل لهم : إن الملك أمرني أن أعطي هذه الدراهم أفضلَكم وأكملَكم ، فمن هو ؟ فقال واحد منهم : أنا وقال الآخر : كذب بل هو أنا ! وهكذا ادعى كل منهم الأفضلية ، فقال الرسول لم يتميز الأفضل عندي ولم أعرفه ولم يعط شيئاً ، فعاد وأخبر بما وقع ، ثم أرسل الوزير تلك الدراهم إلى أهل الخانِقاه[٢] ففعلوا عكس ما فعله العلماء .

٢ . وأعطى بيده سيفا فقال : اذهب فقل لهم[٣] : إن الملك أمرني أن أضرب عنق رئيسكم فمن هو ، فقال واحد منهم أنا وقال الآخر بل أنا وهكذا قال كل منهم إيثاراً لبقاء أخيه واختياراً لفدآء رفيقه بنفسه ، فقال الرسول لم يتميز ما هو الواقع عندي ، فرجع وأخبر بما وقع فأرسل السيف إلى العلماء ففعلوا عكس ما فعله الفقراء ، فحَجَّ[٤] بذلك الوزيرُ على الأمير .

وأنت تشاهد أن فقراء زماننا على عكس هؤلاء الفقراء في البلاد والممالك قال أبو يزيد البسطامي ﵁ : غلبني رجل شاب من أهل بلخ حيث قال لي : ما حد الزهد عندكم ؟ فقلت : إذا وجدنا أكلنا وإذا فقدنا صبرنا ، فقال : هذا فعل كلاب بلخ عندنا ، بل إذا فقدنا شكرنا وإذا وجدنا آثرنا .

---

(١) القناعة هي الرضا باليسير .
(٢) الخانقاه رباط الصوفية .
(٣) لهم أي : لأهل الخانقاه .
(٤) حجّه أي : غلبه في حُجَّته .

فضل الكرم والجود :

عن عائشة ﵂ ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « السخيّ : قريب من الله تعالى ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد من النار ، والبخيل : بعيد من الله تعالى ، بعيد من الناس ، بعيد من الجنة ، قريب من النار . والجاهل السخيّ أحب إلى الله تعالى من العابد البخيل » .

وقد قال ﷺ : « اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى » ، وقال بشر بن الحارث ﵀ : النظر إلى البخيل يقسي القلب ، وقيل : بكى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﵁ يوماً ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام ، وأخاف أن يكون الله تعالى قد أهانني ، وروي عن أنس بن مالك ﵁ ، أنه قال : زكاةُ الدّار أن يتخذ فيها بيت للضيافة .

من جميل ما قيل في الكرم والجود :

١ . قال أحدهم : ما أحبّ أن أرد أحداً عن حاجة طلبها مني ؛ لأنه إن كان كريماً أصون عرضه ، وإن كان لئيما أصون عنه عرضي .

٢ . وقيل : ضيف الكريم كريم .

٣ . وقال إبراهيم بن الجنيد ﵀ : كان يقال : أربعة لاينبغي للشريف أن يأنف منهن ، وإن كان أميراً : قيامه من مجلسه لأبيه ، وخدمته لضيفه ، وخدمته لعالم يتعلم منه ، والسؤال عما لم يعلم .

٤ . وقال عبد الله بن المبارك ﵀ : سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل .

من قَصَصَ الإيثار و الكرم والجود :

وقد رويت قَصص عن السلف الصالح تبين غاية الإيثار و الكرم والجود الذي وصلوا إليه ، من ذلك :

١ . ما روي أنه لما سعى غلام خليل[١] بالصوفية إلى الخليفة أمر بضرب أعناقهم ؛ فأما الجنيد ﷺ فإنه تستر بالفقه ، وكان يفتي على مذهب أبي ثور[٢] ، وأما الشحَّام ، والرقَّام ، والنُّوريُّ ، وجماعة ، فقبض عليهم ؛ فبُسط النِّطْعُ[٣] لضرب أعناقهم ، فتقدم النوري فقال له السّياف : تدري إلى ماذا تبادر ؟ فقال : نعم فقال : وما يُعَجِّلُك ؟ فقال : أوثر عليَّ أصحابي بحياة ساعة ، فتحيَّر السيَّاف ، وأنهى الخبر إلى الخليفة ، فردهم إلى القاضي ليتعرف حالهم ، فألقى القاضي على أبي الحسين النوري مسائل فقهية ، فأجابه الكل ، ثم أخذ يقول : وبعد ؛ فإن لله تعالى عباداً قاموا بالله ، وإذا نطقوا نطقوا بالله ، وسرد ألفاظاً أبكى بها القاضي فأرسل القاضي إلى الخليفة ، وقال : إن كان هؤلاء زنادقة : فما على وجه الأرض مسلم .

٢ . وقيل : كان عليّ بن الفضيل ﷺ يشتري من باعة المحلة[٤] ؛ فقيل له : لو دخلت السوق فاسترخصت ، فقال : هؤلاء نزلوا بقربنا رجاء منفعتنا .

٣ . وقيل : عطش عبيد الله بن أبي بكرة ﷺ يوماً في طريقه ، فاستسقى من منزل امرأة ، فأخرجت له كوزاً ، وقامت خلف الباب ، وقالت : تنحوا عن الباب ، وليأخذه بعض غلمانكم ، فإني امرأة من العرب : مات خادمي منذ أيام ، فشرب عبيد الله الماء وقال يا غلام احمل اليها عشرة آلاف درهم ، فقالت : تسخر بي ؟ فقال : احمل إليها عشرين ألف درهم ، فقالت : أَسْأَل الله تعالى العافية . فقال : يا غلام احمل إليها ثلاثين ألف درهم ، فردّت الباب وقالت : أف لك . فحمل إليها ثلاثين ألف درهم ، فأخذتها فما أمست حتى كثر خُطَّابُها .

٤ . وكان أبو الحسن البُوشَنْجِيّ ﷺ في الخلاء ، فدعا تلميذاً له ، وقال له : انزع عني هذا القميص ، وادفعه إلى فلان ؛ فقيل له : هلا صبرت حتى تخرج من الخلاء ؟ فقال : لم آمن على نفسي أن تتغير .

---

(١) غلام خليل اسم الشخص .
(٢) أبو ثور فقيه جمع في مذهبه بين فقه الإمام أبي حنيفة والإمام الشافعي رحمهم الله .
(٣) النِّطْعُ هو بساط من جلد يُفرَش تحت المحكوم عليه بالقتل .
(٤) الباعة جمع بائع ، والمحَلة هي قسمٌ من أقسام المدينة .

٥ . وقيل لقيس بن سعد بن عبادة رحمه الله : هل رأيت أحداً أسخى منك ؟ فقال له : نعم ؛ نزلنا بالبادية على امرأة ، فحضر زوجها ، فقالت له : إنه نزل بك ضيفان ، فجاء بناقة ونحرها ، وقال : شأنكم بها . . . فلما كان بالغد جاء بأخرى ونحرها ، وقال : شأنكم بها ، فقلنا : ما أكلنا من التي نحرت لنا البارحة إلا اليسير : فقال : إني لاأطعم أضيافي الغاب[1] ، فبقينا عنده يومين أو ثلاثة ، والسماء تمطر ، وهو يفعل كذلك ، فلما أردنا الرحيل وضعنا له مائة دينار في بيته ، وقلنا للمرأة : اعتذري لنا إليه ، ومضينا ، فلما مَتَع[2] النهار إذا نحن برجل يصيح خلفنا : قفوا أيها الركب اللئام : أعطيتموني ثمن قراي ؟ ! ثم إنه لحقنا وقال : لَتَأْخذنّه .

٦ . وقيل : خرج عبد الله بن جعفر رحمه الله إلى ضَيْعة له[3] ، فنزل على نخيل قوم وفيها غلام أسود يعمل فيها ؛ إذ أتي الغلام بقوته ، فدخل كلبُ الحائطَ ودنا من الغلام ، فرمى إليه الغلام بقرص ، فأكله ، ثم رمى إليه بالثاني والثالث فأكله ، وعبد الله بن جعفر ينظر إليه فقال له : يا غلام ، كم قُوتك كلَّ يوم ؟ قال : ما رأيت : قال : فلم آثرت هذا الكلب ؟ قال : ما هي بأرض كلاب ، إنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً ، فكرهت رده .قال : فما أنت صانع اليوم ؟ قال له : أطوي يومي هذا . فقال عبد الله بن جعفر : أَأُلام على السخاء ؟ ! إنَّ هذا لأسخى مني ، فاشترى الحائط والغلام وما فيها من آلات ، فأعتق الغلام ووهبها له .

٧ . وقال مُطَرِّفْ بن الشِّخِّيرْ رحمه الله : إذا أراد أحدكم مني حاجة فليرفعها في رقعة ؟ فإني أكره أن أرى في وجهه ذلّ الحاجة .

٨ . وقيل : سأل رجل الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما شيئاً فأعطاه خمسين ألف درهم وخمسمائة دينار ، وقيل : اِئْتِ بحَمَّال يحمله لك ، فأتى بحمال فأعطاه طَيْلَسانه[4] وقال : يكون كِراءُ الحمال من قِبلي .

(١) الغاب = الطعام البائت .
(٢) متع النهار أي : ارتفع .
(٣) الضَّيِعة هي الأرض الزراعية .
(٤) الطَّيْلسان هو لباس يلبسه العلماء .

٩ . وقيل : لما قربت وفاة الشافعي رحمه الله قال : مُروا فلاناً يُغَسِّلني ، وكان الرجل غائباً ، فلما قدم أُخْبِرَ بذلك ، فدعا بتذكرته[١] ، فوجد عليه سبعين ألف درهم ديناً ، فقضاها ، وقال : هذا غسلي إياه .

١٠ . وقيل : خرج السريّ رحمه الله يوم عيد ، فاستقبله رجل كبير الشأن ، فسلم السري عليه سلاماً ناقصاً ، فقيل له : هذا رجل كبير الشأن ، فقال : قد عرفته ، ولكن روي مسنداً : « أنه إذا التقى المسلمان قُسمت بينهما مائة رحمة : تسعون لأَبَشِّهِما[٢] ، فأردت أن يكون معه الأكثر » .

١١ . وقال بعضهم : دخلت على بشر بن الحارث رحمه الله في يوم شديد البرد وقد تعرى من الثياب وهو ينتفض ، فقلت : يا أبا نصر ، الناس يزيدون في الثياب في مثل هذا اليوم وأنت قد نقصت ؟ ! فقال : ذكرت الفقراء وما هم فيه ، ولم يكن لي ما أواسيهم به ، فأردت أن أرافقهم بنفسي في مقاساة البرد .

الفصل الثاني عشر : الفتوة و المروءة

حقيقة الفتوة والمروءة :

اعلم أنه وإن اختلفت العبارات في بيان حقيقة كل من الفتوة والمروءة ؛ فإن المعنى الذي تدور حوله واحد ، وهو : صدق اللسان واحتمال عثرات الإخوان ، وبذل المعروف لأهل الزمان ، وكف الأذى عن الجيران .

وقد سئل أبو الحسن البوشنجي رحمه الله عن المروءة فقال : هي ترك استعمال ما هو محرّم عليك مع الكرام الكاتبين .

وقال الأنطاكي رحمه الله المروة أداء الطاعات واجتناب المنهيات وترك اللذات عن الشهوات .

---

(١) التذكرة هي ما تذكر الإنسان بحاجته ،ولعل المراد هنا ورقة تُثبت عليها الديون ليذكرها صاحبها .
(٢) لأَبَشِّهما أي : لأكثرهما بشاشة ، والبشاشة طلاقة الوجه .

وقال أحدهم : أصل الفتوة أن يكون العبد ساعياً أبداً في أمر غيره ، وسئل الجنيد ﵁ عن الفتوة ، فقال : أن لا تنافر فقيراً ، ولا تعارض غنياً ، والصدق قرين الحرية والفتوة .

المروءة والفتوة من شروط الطريق :

يا ولدي ؛ لقد أجمع القوم على أن المُرُوَّة ، والشجاعة ، والرجوليَّة ؛ شرطٌ في طريق الله تعالى و إني أريد أن أكون كالتَّيس[1] بترك ما بأيدي الناس ، والإعراض عنه ، ولا أريد أن أكون كالمعز بقبول إحسانهم من متاع دنيا لا تزن بأسرها عند الله جناح بعوضة .

وقال الإمام الخوّاص ﵁ حين سئل ما العلة في منع المريد من قبول الرفق من الناس ؟ فقال : لأن المروءة والطبع يحملانه على مكافأة الناس على إحسانهم وتوفية حقوقهم وعلى مراعاتهم .

وقد نبّه النبي ﷺ أصحابه على أهمية المروءة ،وحذّرهم من الوقوع فيما يجرحها أو يخرمها ، فقال ﷺ : « إياكم والجلوس في الطرقات ، فإن أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقها ، قالوا وما حقها يا رسول الله ؟ قال : غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .

وحين امتدح الله تعالى أهل الكهف امتدحهم بكونهم فِتْيَةً ، و من فتوّتهم شجاعتُهم التي جرّتهم إلى التوحيد وهو منبع الكمالات ، قال تعالى : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ « الكهف١٣ » .

يقال إنهم فتية لأنهم آمنوا على الوهلة[2] بربّهم ، آمنوا من غير مُهلة ، لمّا أتتهم دواعي الوُصلة[3] ، ويقال فتية لأنهم قاموا لله ، وما استقروا حتى وصلوا

(١) التيس هو الذكر من المعز .
(٢) الوهلة هي أول الأمر .
(٣) دواعي الوُصلة أي : أسباب الاتصال بالله تعالى .

إلى الله ، وقيل أصل الفتوة الإيمان ، ولذا سمى الله أصحاب الكهف فتية فقال : ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ الكهف : ١٣ .

من جميل ما قيل في الفتوة والمروءة :

وقد قال السلف في الفتوة والمروءة كلمات مضيئة ، منها :

١ . قال أحد الصالحين : المروة عندنا أن نعطي من حرمنا ونعفو عمن ظلمنا ونصل من قطعنا ونحسن إلى من أساء إلينا .

٢ . وقال الإمام الجنيد قدس سره : الفتوة بالشام ، واللسان بالعراق ، والصدق بخراسان .

٣ . وقال الفضيل رحمه الله : الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان

٤ . وقال أبو بكر الوراق رحمه الله : الفتى من لا خصم له .

٥ . وقال محمد بن علي الترمذي رحمه الله : الفتوة أن تكون خصماً لرِّبك على نفسك .

٦ . ويقال : الفتى : من لا يكون خصماً لأحد .

٧ . وقيل : الفتى من كسر الصنم الأكبر ، قال الله تعالى : ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ « الأنبياء ٦٠ » وصنم كل إنسان نفسه ؛ فمن خالف هواه فهو فتى على الحقيقة .

٨ . وقيل : الفتوة أن تنصِفَ ولا تنتصف .

٩ . وقال عمر بن عثمان المكيِّ رحمه الله : الفتوة حسن الخلق .

١٠ . وقال النَّصرَاَبَاذِيُّ رحمه الله : المروءة شعبة من الفتوة ، وهو الإعراض عن الكونين ، والأَنَفَةُ منهما .

١١ . وقال محمد بن علي الترمذي ﷺ : الفتوة أن يستوي عندك المقيم والطارىء[١] .

١٢ . وسئل أحدهم ما الفتوة ؟ فقال : تركُ ما تهوى لما تخشى .

١٣ . وسئل بعضهم : ما الفتوة ؟ فقال : أن لا يُميزّ بين أن يأكل عنده ولي أو كافر .

١٤ . وقال الجنيد قدس سره : الفتوة كفّ الأذى ، وبذل الندى[٢] ، وترك الشكوى .

١٥ . وقال سهل بن عبد الله ﷺ : الفتوة اتباع السنَّة .

١٦ . وقيل : الفتوة الوفاء والحفاظ[٣] .

١٧ . وقيل : الفتوة فضيلة تأتيها ولا ترى نفسك فيها .

١٨ . وقيل : الفتوة أن لاتهرب إذا أقبل السائل .

١٩ . وقيل : إظهار النعمة ، وإسرار المحنة .

٢٠ . وقيل : أن تدعو عشرة أنفس فلا تتغير إن جاء تسعة أو أحد عشر .

٢١ . وقيل : ليس من الفتوة أن تربح علي صديقك .

٢٢ . وقيل : الفتوة إيثار الخلق بنفسك بعد أن تؤثرهم بالدنيا والآخرة .

٢٣ . وقيل : هي أن تصنع المعروف مع أهله ومع غيرأهله .

٢٤ . وقيل : أن يكون العبد أبدا في أمر غيره ، قال ﷺ : « لا يزال الله تعالى على حاجة العبد مادام العبد في حاجة أخيه » .

---

(١) أي : أن يستوي إكرامك للمقيمين عندك والطارئين ضيوفا عليك .
(٢) النَّدى هو الخير .
(٣) لعلَّ المراد الوفاء بالعهد والحِفاظ على الأمانة .

٢٥ .وقيل : هي الصفح عن عثرات الاخوان وستر عيوبهم .

٢٦ .وقيل : هي أن لا ترى لنفسك فضلا على غيرك .

٢٧ .وقيل : إظهار النعمة وكتمان المحنة .

من قصص الفتوة والمروءة :

وقد رويت في الفتوة قَصَصٌ عظيمة عن الصالحين ، وها نحن نروي لك بعضا منها :

١ . حُكي أن سبب تسمية حاتم بالأصم ﷺ أنه : جاءته امرأة تستفتيه ، فسألت حاتماً عن مسألة ، فاتفق أنه خرج منها في تلك الحالة صوت ، فخجلت ، فقال حاتم : ارفعي صوتك ، فأرى من نفسه أنه أصم ، فسرّت المرأة بذلك وقالت : إنه لم يسمع الصوت ! فغلب عليه اسم الأصم .

٢ . وقال ذو النون المصري ﷺ : لمَّا حُملتُ إلى الخليفة ، فيما نُسب إليَّ من الزندقة ، رأيت سَقَّاء عليه عمامة ، وهو مُتَرَدٍّ بمنديل مصري ، وبيده كيزان خَزَف رُقاق[١] ، فقلت : هذا ساقي السلطان ؟ فقالوا : لا ، هذا ساقي العامَّة ، فأخذتُ الكوز وشربت ، وقلت لمن معي : أعطه ديناراً ، فلم يأخذه ، وقال : أنت أسير ، وليس من الفتوة أن آخذ منك شيئاً .

٣ . وقال ذو النون ﷺ : كان فتى يسمى أحمد بن سهل التاجر ، وقد اشتريت منه خرقة بياض فأخذ الثمن رأس ماله فقلت له : ألا تأخذ ربحاً ؟ فقال : أما الثمن فآخذه ، ولا أُحَمِّلُك مِنَّةً .

٤ . وقيل : خرج إنسان يَدَّعي الفتوة من نيسابور إلى نَسا[٢] فاستضافه رجل معه جماعة من الفتيان ، فلما فرغوا من الطعام خرجت جارية تصب الماء

(١) الرُّقاق أي : الرقيقة .
(٢) نَسا قرية قديمة تقع في جمهورية تركمانستان .

على أيديهم ، فانقبض النيسابوري عن غسل اليد ، وقال : ليس من الفتوة أن تَصُبَّ النسوان الماء على أيدي الرجال !

٥ . وقيل : إن رجلاً من الحُجّاج نام بالمدينة ، فتوهَّم أن هِمْيانه[1] سُرِق ، فخرج ، فرأى جعفراً الصادق ﷺ فتعلَّق به ، وقال له : أنت أخذت همياني ؟ فقال له : ماذا كان فيه ؟ فقال : ألف دينار .فأدخله داره ووزن له ألف دينار ، فرجع الرجل إلى منزله ، فرأى همیانه في بيته وقد كان توهَّم أنه سرق ؛ فخرج إلى جعفر معتذراً ، وردّ عليه الدنانير ، فأبى أن يقبلها ، وقال : شيء أخرجته من يدي لا أَسْتَرِدُّه .

٦ . وقال الشعراني ﷺ : اعلم أن فتوة أولياء الله تعالى إذا أذن لهم في الشفاعة أن يبدؤا بالشفاعة ممن آذاهم في دار الدنيا ورماهم بالكفر والزندقة والرياء والنقائص . وذلك ليزيلوا عنه الخجل حين يرى مقام أولياء الله تعالى في الآخرة عند الله تعالى من التقريب وإجابة السؤال ، وقد كان في دار الدنيا يجهل ذلك . وهناك تطمئن نفوس المنكرين ويزول منهم الخوف الذي حصل لهم من أولياء الله تعالى في ذلك اليوم العظيم . قال : وإنما لم يبدأ الأولياء بالشفاعة فيمن أحسن إليهم واعتقدهم في دار الدنيا ، لأن المحسن مطمئن بما قدم من الإحسان ، فعين إحسانه يكفيه ويكون شفيعا له عند الله تعالى .

واعلم أن من الفتوة الستر على عيوب الأصدقاء ، لاسيما إذا كان لهم فيه شماتة الأعداء .

وقال أبو علي الدقاق ﷺ : كمال الفتوة والإيثار لم يكن لأحد من البشر إلا لمحمد ﷺ فإن كل نبي يقول يوم القيامة نفسي نفسي وهو يقول أمتي أمتي .

(١) الهميان كيس توضع فيه النفقة يُشَدُّ على الوَسْط .

واعلم أن الحرية أشرف من الصدق والفتوة أشرف منهما والمروءة شعبة من الفتوة والفرق بين الزاهد والفتى أن الزاهد من آثر عند الغنى والفتى من آثر عند الحاجة كما قال تعالى : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ .

الفصل الثالث عشر : الحرية :

اعلم أن الحرية هي أن لايكون العبد تحت رق المخلوقات ، ولا يجري عليه سلطان المكونات ، وعلامة صحتها : سقوط التمييز عن قلبه بين الأشياء ، فيتساوى عنده أخطار الأعراض ، وهي ترك نعيم الدنيا واختيار عبادة المولى .

واعلم أن حقيقة الحرية في كمال العبودية ؛ وسئل الجنيد ﷺ عمن لم يبق عنده من الدنيا إلا مقدار مصِّ نواة ، فقال : المكاتَب عبدٌ ما بقي عليه درهم ، قال الحسين بن منصور ﷺ : من أراد الحرية فَلْيَصِل العبوديةَ ، وإن مقام الحرية عزيز .

واعلم أن معظم الحرية في خدمة الفقراء ، قال يحيى بن معاذ ﷺ :أبناء الدنيا تخدمهم الإماء والعبيد ، وأبناء الآخرة تخدمهم الأحرار والأبرار ! و أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : إذا رأيت لي طالباً فكن له خادماً ، وقال ﷺ : « سيد القوم خادمهم » .

من جميل ما قيل في الحرية :

١ . وقد قيل في الحرية كلام نفيس ، من ذلك :

٢ . قول أحد الصالحين : عَزَفَتْ نفسي[1] عن الدنيا ؛ فاستوى عندي حجرها وذهبها .

(١) عزَف عن الشيء إذا امتنع عنه .

٣ . وقال الدقاق ﷺ : من كان في الدنيا حراً منها كان في الآخرة حراً منها .

٤ . وقال إبراهيم بن أدهم ﷺ : إنَّ الحر الكريم يخرج من الدنيا قبل أن يُخرَج منها .

٥ . وقال أيضا : لا تصحب إلا حراً كريماً ؛ يسمع ولا يتكلم .

الفصل الرابع عشر : المحبة

اعلم أن حقيقة المحبة ميل الطبع إلى الشيء لكونه لذيذا عند المحب ، ولا تحصل حقيقة المحبة من العبد لربه إلا بعد سلامة القلب من كدورات النفس لأن المحبة صفة محرقة وعلامتها قطع شهوات الدنيا والآخرة ، وعلامة حب الله للعبد حب العبد لله ومحبة الله للعبد إرادته كثرة الإنعام عليه والإحسان إليه بتقريبه وإعطائه الأحوال السنية والمقامات العلية ، وإرادته عز وجل صفة واحدة ولكنها تختلف باختلاف متعلقاتها فإذا تعلقت بعموم النعمة سميت رحمة ، وإذا تعلقت بخصوص النعمة سميت محبة .

واعلم أن المحبين على ثلاثة أقسام : عوام وخواص وخواص الخواص[1] ، ومن اشتاق إلى الله اشتاق إليه كل شيء ، وقد أجمعت الأمة على أن حب الله ورسوله فرض عين على كل أحد .

وقد قال ﷺ : « إذا أحب الله عبدا قال : يا جبريل إنّي أحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الارض » ، وقال ﷺ يحكي عن ربه تبارك وتعالى : « إني إذا اطلعت على قلب عبدي ولم أجد فيه حب الدنيا ملأته من حبي » ، وقال ﷺ : « علامة حب الله حب ذكره » .

(١) لعلّ المرا بالخواصّ المريدون وخواص الخواص المرشدون .

قالوا في المحبة :

١ . محبة العبد لله هي التعظيم وإيثار الرضا وقلة الصبر وكثرة الاستئناس بذكره .

٢ . وقيل هي المبادرة إلى أداء الطاعات فرضا ونفلا وشدة اجتناب المعاصي ويؤيد ذلك قوله ﷺ حكاية عن ربه تعالى : « ما تقرب إلي المتقربون بأفضل من أداء ما افترضت عليهم ولا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ويدا » .

٣ . وقيل : المحبة هي حالة لا تنقص بالجفاء ولا تزيد بالبر .

٤ . وقيل : هي نار في القلب تحرق ما سوى المحبوب .

٥ . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔا﴾ أي : لا تحبوا غيره .

٦ . وقال بعض العارفين حاكيا عن الله تعالى : عبدي خلقت الأشياء كلها من أجلك وخلقتك من أجلي فاشتغلت بما خلقته لك عني فإذا اشتغلت بالنعمة عن المنعم فما أديت شكر نعمته لأن كل نعمة شغلتك عني فهي نقمة وكل عطية ألهتك عني فهي بلية .

٧ . وبالجملة ففي دعوى المحبة خطر ، ولذلك قال الفضيل : **إذا قيل لك** أتحب الله تعالى فاسكت ، فإنك إذا قلت « لا » كفرت ، وإن قلت « نعم » ، فليس وصفك وصف المحبين ، فاحذر المقت . وقد قال بعض العلماء : ليس في الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ، ولا في جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشيء من ذلك .

الفصل الخامس عشر : الاخلاص

حقيقة الإخلاص :

اعلم أن الإخلاص تصفية الفعل من ملاحظة المخلوقين ، و هو ضد الرياء فمن عمل عملا ولم يكن مع رياء فهو إخلاص ، والرياء : طلب المنزلة في قلوب الناس بإراءتهم الخصال المحمودة ، كأنْ يحب العبد اطلاع الناس على عبادته وغيرها ، وقد قال تعالى في الحديث القدسي : « الإخلاص سر من سري ، استودعته قلب من أحببته من عبادي » .

واعلم أن الاخلاص لله تعالى يكون في الأقوال والأفعال والملك والوجود ، كل مرتبة بشروطها المقررة بين أهل التوحيد بأن لا نضيف لأحد من الخلق نفعا ولا ضرا ولا حلا ولا ربطا ولا نقول قط أنا ، ولا معَنا ، و لا لنا ولا عندنا ، إلا على سبيل المجاز والنسيان ، فإن ذلك معدود من الشرك الخفي وقال الله تعالى :﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ النساء : ٦٣ ، فنكّر الشيء ولم يعين شيئا دون شيء .

وقد سأل بعض الفقراء ربه المغفرة وقال : يا رب اغفر لي فإنك وعدت بالمغفرة كل من لم يشرك بك شيئا ، وأنت تعلم أني ما أشركت بك يوما واحدا ، فإذا بالهاتف يقول : ولا يوم اللبن ؟ ! فخجل واستحيى وتذكر أنه قدم له يوما لبن ليشرب منه فقال : أخاف أن يضرني ، فأحصاه الله عليه[1] ؛ لكونه نسب الضر إلى اللبن ! فتأمل ذلك .

علاج الرياء :

واعلم أن من يريد التخلي عن هذا الوصف يحتاج إلى شيخ كامل يفنى اختياره في اختياره ، حتى يسير به في طريق الغيب ويوصله إلى حضرة الله عز وجل ، وذلك أن من لم يسلك الطريق فهو واقفٌ في عبادته مع نفسه ومع الخلق في الأعمال ، ولو أنه دخل حضرة الإحسان لشهد أن الله تعالى هو

(١) أحصاه الله عليه أي : عدّه عليه .

الفاعل لجميع أفعاله خلقا وإيجادا ، وما بقي له إلا أن الفعل مسند إليه مجازا ، فصار يشهد جوارحه كالآلة التي يحركها المحرك فيرى الله تعالى هو الفاعل في جوارحه بالإمداد والقوى ، وقد قال ﷺ : « لا أخاف على أمتي في شيء كما أخاف من الشرك الخفي ألا وهو الرياء » وعلاج ذلك شديد لامتزاجه بقلب الأدمي وترسخه فيه ، وسبب صعوبته أن الآدمي منذ كبر ونشأ بين الناس رآهم يتراءون فيما بينهم ويزين بعضهم بعضا ويمدح بعضهم بعضا .

وروي عن الإمام الشعراني قدس سره : إن كلاً من العابدِين اتخذوا من دون الله تعالى ما لم يأذن به الله تعالى ، وهم في ذلك على طبقات ؛ فمنهم من قصد بعلمه وعمله وما يقع على يديه من الخيرات حصول المكانة في قلوب الناس ، ودوام الصيت ، وانتشار الجاه ، ومنهم من يقصد بعلمه وعمله إعلاء الدرجات ، وظهور الكرامات ، والتصريف في الكون ، والمشي على الماء ، والطيران في الهواء ، وكشف الغيوب ، ومنهم من لم يقصد بعلمه وعمله شيئاً من أمور هذه الدار ، إنما يقصد بذلك الحور الحسان ودخول الجنان ، وغير ذلك من ثواب الآخرة ، ومنهم من يقصد بذلك السلامة من النار والخوف من الحساب والعقاب ، وما أعده الله تعالى لأهل تلك الدار من النكال والوبال ، ومنهم من يقصد بعلمه وعمله القرب من الله تعالى والرضاء عنه والمحبة . ومنهم من لا قصد له في علمه وعمله إلا علمه باستحقاق مولاه العبادة ، قد تبرأ من الاعتماد على حوله وقوته فأتى بأعماله على وجه الإخلاص وهو خائف من الله تعالى لا يرى أنه قام بذرّة واحدة من الأمور التي كلف بها على الوجه الذي أمر به ، ومن هنا يترقى السالك في مراتب إخلاص الخواص التي كل ذرة منها تعدل عبادة ألف سنة من عبادة أهل تلك الأقسام السابقة ، وفي الإبريز : كل ما عملته بقصد الأجور والحسنات فهو عمل لغير الله تعالى .

وأما المحرومون فهم الذين تكون أعمالهم لنفع نفوسهم ولتحصيل أغراضها ولا تكون لله عز وجل ، وهذه الأعمال لا تزيد إلا بعداً من الله عز وجل ، لأنها

مخالفة لسر حقيقة الذات ، لأنه تعالى لم يقل : اعملوا لأنفسكم وأنا أثيبكم على أنفسكم في هذه الحالة بجزيل العطية ، وإنما قال : اعبدوني واخلصوا لي العبادة وأنا أثيبكم ، فنيَّتنا في أفعالنا تكون لله عزّ وجل ولعظمته وكبريائه

وما أقبح العبد وأجهله حيث يظن أنه يُحَصِّل الحسنات ويكسب الأجر بأفعاله وهو يعلم أن أفعاله لم يُحَصِّلْ منها ولو شعرة ، فإذا كانت الذات مخلوقة لله عز وجل والأفعال مخلوقة لله فكيف يسوغ لنا أن نعتمد في الحسنات على أفعالنا المخلوقة له عز وجل ، ولا نعتمد على مجرد فضله ورحمته ! ولكن الغفلة عن الله تعمي البصائر والعياذ بالله .

واعلم أن الدواء الذي إذا استعمله العبد زال عنه الرياء والإعجاب بنفسه هو الإكثار من ذكر الله تعالى بتلقين شيخ مأذون إجازته صحيحة حتى يتجلى في قلبه التوحيد الحقيقيّ ، ويرى أعماله خلقاً لله وحده جملة ، ليس لعبد فيها غير النسبة ، وقال شيخنا عبد الرحمن العسليّ ﷺ : لا يتخلَّص الإنسان من الرياء إلا في مقام يرى السالك أن لا محرِّك إلا الله . .وذلك عند التكمُّل والله أعلم .

دقائق الرياء :

ومن دقائق الرياء العبادة مع قصد التقرب من حضرة الله تعالى فإن ذلك كالعمل بأجرة ، وهذه العلة من أخفى العلل وربما ترقّي صاحبها إلى قرب من حضرة الله تعالى فيقال له ارجع فلست من أهلها إنما أهلها من يعبد الله امتثالا لأمره ووفاء بواجب حقه تعالى .

ومنها ترك العمل من أجل الناس قال الفضيل رحمه الله : ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الحق منهما

ومنها قطع المزح المباح إذا دخل من يستحيى منه ، كان الفضيل رحمه الله يقول : لو قيل إن أمير المؤمنين داخل عليك الساعة فسوّيت لحيتي لخفت أن أكتب في جريدة المنافقين ومنها الزيادة في الاطراق والخشوع لدخول أحد الأكابر

فاعلم أيها الأخ أن المخلص لا يبالي بأقوال الناس ولا يُسيئ قلبه بالذمِّ ، ولا يعجب ولا يفرح بالمدح ، فكن بالقلب مع الله ولا تقصِّر بقدر الطاقة ، وأحسن للخلق واسْعَ في المعيشة لعيالك ولنفسك ، واطلب الحلال حيث وُجد .

كان سيدي إبراهيم المتبولي ﵁ يقول : لما خلق الله تعالى الخلائق قال : من أنتم فقالوا عبيدك ومحبوك ، فقال : انظروا ما تقولون فإن المحب لا يصرفه صارف ولا ترده السيوف والمتالف[(١)] ، فقالوا امتحنا بما شئت ، فخلق لهم الدنيا ، ففر إليها منهم تسعة أعشارهم وبقي العشر ، فقال للعشر : من أنتم ؟ فقالوا : عبيدك وأَحِبَّاؤُك ، فقال : انظروا ما تقولون فإن المحب لا يصرفه صارف ولا ترده السيوف والمتالف ، وقد نظرتم أصحابكم ، كيف ذهبوا إلى الدنيا ، فقالوا امتحنا بما شئت ، فخلق لهم الجنة ، وزينها في أعينهم ، فذهب إليها تسعة أعشار العشر ، ثم نظر إلى عشر العشر ، فقال من أنتم ؟ فقالوا : أحباؤك ، فقال : انظروا ما تقولون وقد رأيتم أصحابكم فقالوا : امتحنا بما شئت فضربهم بنوع من البلاء ، فثبتوا وهو الذي ثبَّتَهم ، فقال : أنتم عبيدي حقا ، لا إلى الدنيا فررتم ولا إلى الجنة فررتم ولا من البلاء فررتم ، ثم اشهدوا يا ملائكتي أني قد رضيتهم لحضرتي .

من جميل ما قيل في الإخلاص :

١ . قال الله تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ « الزمر ٣ » أي : السالم من أن يشوبه تشريك غيره في عبادته .

٢ . وقال ﷺ : « ثلاث لا يَغِلُّ[(٢)] عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمور ، ولزوم جماعة المسلمين » .

٣ . وسئل الحسن ﵁ عن الإخلاص ما هو ، فقال : سألت حذيفة عن الإخلاص ما هو ؟ قال : سألت النبي ﷺ عن الإخلاص ما هو ؟ قال : سألت

(١) المتالف هي المهالك .
(٢) « لا يَغِلُّ » من غل إذا صار ذا حقد وعداوة .

جبريل .عليه السلام عن الإخلاص ما هو ؟ قال : سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو ؟ قال : سر من سري استودعته قلب من أحببته من عبادي .

٤ . وقيل : متى شهدوا في إخلاصهم الإخلاص احتاج إخلاصهم إلى إخلاص .

٥ . وقال الجنيد قدس سره : الإخلاص سر بين الله وبين العبد ، لا يعلمه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، ولا هوى فيميله .

٦ . وقيل لسهل رحمه الله أي شيء أشد على النفس ؟ فقال : الإخلاص ، لأنه ليس لها فيه نصيب .

٧ . وقال بعضهم : أهل لا إله إلا الله كثير والمخلصون منهم قليل .

٨ . وقيل : ما أخلص عبد أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه .

٩ . وقال أحد الصالحين :أعز شيء في الدنيا الإخلاص ، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي ، فكأنه ينبتُ فيه على لون آخر .

الفصل السادس عشر : قضاء حوائج الناس وحفظ حرماتهم

اعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من مشى في قضاء حاجة أخيه ثبَّتَ الله قدميه على الصراط » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » ، و إنما يعطى العبد الجاه لأجل إقامة العدل في الوجود ،و قال علي الخواص قدس سره : إن لله عز وجل ملائكة ينزلون على الأرض بقصد الامتحان لمن سبق له تحويل النعم ، فيأتون إلى باب من اشتهر بالكرم وقِرى الضيف فيقفون عليه ويتعنتون في السؤال له فإذا أعطاه لهم سألوه ثانيا وهكذا حتى يحصل عنده النَّزاقة[1] ويخرج خُلُقُه عليهم ، فإذا فعل ذلك دعوا الله عليه فحوّل الله النعم .

(١) النَّزاقة هي الغضب .

ويؤيده قول النبي ﷺ : « إن لله عز وجل عند عباده نعما يقرها عندهم ، مالم يملوا من حوائج الناس ، فإذا ملوها حوّلها الله عنهم إلى غيرهم » ، وقوله ﷺ : « يا عائشة أحسني مجاورة نعم الله عز وجل ، فإنها قل ما نفرت عن أهل بيت فكادت ترجع إليهم » .

فضل قضاء حوائج الناس :

اعلم يا بني أن تعظيم حرمات المؤمنين من تعظيم حرمات الله تعالى ، وبه يصل العبد إلى محل حقيقة التقوى ، وقد قال معروف الكرْخيّ رحمه الله : قال لي بعض أصحاب داوود الطائي رحمه الله : إياك أن تترك العمل فإن ذلك الذي يقربك إلى رضا مولاك ، فقلت : وماذاك العمل ؟ فقال : دوام طاعة ربك ، وخدمة المسلمين ، والنصيحة لهم ، وإن أعظم الناس ذلاً فقير داهن غنياً ، أو تواضع له ، وأعظم الناس عزا غني تذلل للفقراء وحفظ حرمتهم .

وقد كان الصالحون يسعون في حاجات إخوانهم وفقراء زمانهم ، قال الإمام الشعراني قدس سره : سألت سيدي علي الخواص عن سبب انحلال القلوب من بعضها في هذا الزمان ، فقال : سببه رفع الأشياء التي كان يقع بها الإلف والمحبة من البر والهدايا والصدقات والخيرات وفي الحديث : « جبلت القلوب على حب من أحسن إليها » .

وقال :أخبرني والدي : ما أظن انني اشتريت لي شاشا ولا جوخة[1] ولا قميصا ولا نعلا ولا صابونا ولا قمحا ولا شعيرا ولا سكرا ولا عسلا ولا ضحية ولا حلاوة ولا منديل حرير للمرأة ولا خفا ولا إزارا ولا شيئا مما يحتاج الحي إليه إنما يأتينا ذلك وغيره من هدايا الأصحاب .

---

(١) الشاش والجوخ نوع من أنواع القماش .

فعُلِمَ أنه لمّا عَدِمَ الناسُ الإحسانَ من بعضهم تفرقت قلوبهم ومن هنا تقطع البلاء فإنه لا ينزل قط على قوم قلوبهم مجتمعة على الخير والمحبة ، بل يقف البلاء بين السماء والأرض ولو مائة عام حتى يجد تنافرا بين الناس وتقاطعا فينزل .

واحذر يا أخي أن تنكر بباطنك على الفقراء إذا قالوا لك إن لم تبرّنا وتحسن إلينا فلا تجالسنا ، لأن ذلك إنما هو امتحان لك ، لا محبة في الدنيا ، فقصدوا في ذلك تحقيق دعواك فيهم ، بأنّهم أحب إليك من مالك ، كما يقع في هذه الدعوى كثير من التجار وأرباب الأموال فيقولون لشيخهم والله أنت أعز عندنا من جميع أموالنا ونسائنا ، ثم يطلب منهم دينارا واحداً فيثقل عليهم فيفتضحون ، وليعلموا أنه إذا ثَقُلَ عليهم دينار يعطونه لشيخهم فكيف لآحاد الناس !

وكان سيدي يوسف العجمي ﷺ إذا دق بابه داق قال لخَدَمِه : انظر من شِقِّ الباب[١] فإن وجدت معه شيئا للفقراء فافتح له وإلا فهي زيارات فشّارات[٢] ، فقيل له مرة ما قصدكم بذلك ولستم تحبون الدنيا ؟ فقال : إن أعز ما عند الفقراء وقتهم وأعز ما عند أبناء الدنيا دنياهم فإن بذلوا لنا أعز ما لديهم بذلنا لهم أعز ما لدينا وإلا فنحن فريق وهم فريق لا رباطة بيننا إلا إفشاء السلام لا غير .

ثم اعلم يا أخي أن الإعانة على النكاح أفضل من الإعانة في فك الرقاب ، ومن الجهاد ، واحذر يا أخي أن تخرج من الدنيا وعندك ألف دينار وأكثر ولم تحفر بئرا ولم تزوج فقيرا ولم تَكْسُ يتيما ولم تُوَفِّ عن مُعْسِر دينا ، ولم تدخل على جار سرورا .

وقد قال الإمام الشعراني قدس سره : أخذ علينا العهود أن نشارك جميع أصحاب الهموم في البلايا النازلة عليهم ، قال ﷺ : « المسلمون كالجسد الواحد إذا

(١) شِقِّ الباب أي : جانبه .
(٢) فَشّارات أي : بلا قيمة .

اشتكى منه عضو تداعى له جميع البدن بالحمى والسهر » ، و أخذ علينا العهود إذا خرجنا إلى مكان بعيد لا نرجع منه في العادة إلا في خمس دّرّج[١] فأكثر ، أن نقول : اللهم إن كان في علمك أن أحدا من إخواننا أو غيرهم يأتينا في هذه الغيبة لحاجة أو سلام فعوقه عن الخروج حتى نرجع وإن كان خرج عوّقنا له حتى يأتي .

الفصل السابع عشر : الورع

حقيقة الورع :

اعلم أن الورع هو ترك الشبهات ، والشبهة هي ما التبس على الناظر حكمه ولم ينكشف له حقيقة أمره .

أهمية الورع :

قال أبو الحسن ﵁ يروي عن أستاذه : احفظ قلبك من إرادة الدنيا وحب النساء وإيثار الشهوات واقنع من ذلك كله بما قسم الله تعالى لك ، إذا خرج لك مخرج الرضا فكن لله شاكرا ، وإذا خرج لك مخرج السخط فكن عنه صابرا ، وحب الله قطب تدور عليه الخيرات ، وحصون ذلك كله أربعة : صدق الورع وحسن النية وإخلاص العمل وصحبة العلم ولا تتم لك هذه الأربعة إلا بصحبة أخ صالح أو شيخ ناصح .

وإياك ثم إياك أن تأخذ من الناس من هذه الدنيا إلا ما صرّح الشارع بصحَّته ، وإياك ثم إياك من أن تمسَّ يدُك بما اعتاده قضاة الديار على جلبه ونهبه ، وقد زيَّن لهم الشيطان نجاسةً مموَّهةً بالذهب ، وسُمّاً مغلَّفاً بالسكَّر ، والأكل من السمِّ القاتل بطعم السكر الموهوم ، واختيار النجاسة الخبيثة رجاءَ الذهب المتخيل شأنُ السفيه المحض ، والبليد المجرَّد .

(١) الدرجة الواحدة تعادل أربع دقائق .

وإنَّ متاع الدنيا قليل جداً ، وقد تلف الأكثر من هذا القليل ، وأيضاً زال أكثرها وبقي الأقل ، ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ « الأعلى ١٧ »ومدَّتها دائمةٌ أبدية .

وقد خاطب شيخ تلميذا له أخذ بعض المال من الناس فقال له : يا ولدي ؛ أجمع القوم على أن المُرُوَّة ، والشجاعة ، والرجولية ؛ شرطٌ في طريق الله تعالى ، ومع ذلك فقد آثرتَ المهانة والجبن والأنوثة ، ولم تَدْرِ قط قدر الرجولية ، وقد كان منك ما كان ، مما استوجب الذلَّة والهوان ، كيف لم تَسْتَح من أخذ أقراش من فلان ، والحال أنك تعرف منِّي أني لا أقبل من الهدايا مع عدم جواز ردِّها في الشرع الشريف إلا أشياء لا يجوز ردُّها ككعك ونحوه مما يستحيي من الناس ردُّه ، وأكافئهم ؛ ولو بشيء قليل بقدر طاقتي ، وأنت خرقت نقاب الحياء بالكلية ؛ ولم تَسْتَح حتى من أراذل الناس !

يا ولدي ؛ إني أريد أن أكون كالتيس بترك ما بأيدي الناس ، والإعراض عنه ، ولا أريد أن أكون كالمعز بقبول إحسانهم من متاع دنيا لا تزن بأسرها عند الله جناح بعوضة .

وقال إبراهيم بن الأدهم رحمه الله : أطب مطعمك ولا عليك بعد ذلك ان لا تصوم النهار ولا تقوم الليل .

الورع لا ينافي التنعم بنعم الله :

وإن الورع الحقيقي لا يتنافى ولا يتعارض مع التنعم بنعم الله تعالى ، فإن الورع يكون عن المحرم والمكروه ، قال العلماء : ومن شأن المريد أن يكون ورعاً عن الحرام والشبهات وعمدة ذلك كله الورع في اللقمة فلو أراد آكل الحلال أن يعصي لما قدر ، ولو أراد آكل الحرام أن يطيع لما قدر .

وليس من الورع ترك المباحات ، فقد جاء في الحديث : « إن رجلاً نذر أن يصوم قائماً لا يَسْتَظِلُّ فأمره رسول الله ﷺ أن يجلس وأن يستظل ويتم

صومه » أمره أن يتمّ ما كان طاعة لله وأن يترك ما ليس بطاعة ، وليت المتورع بترك المباح يخرج سالما ، بل هو عاصٍ ؛ إذ أسند للشريعة ما ليس منها ، واعتقد ترجيح ما هو مُسْتَوٍ في الشريعة ، فهذا ضلال مبين .

وقد كان ﷺ يحب الحلواء بالعسل ويأكل اللحم وخصوصاً الذراعُ ، ويُنْقَع له الزبيب والتمر[1] ويتطيب بالمسك .

من جميل ما قيل في الورع :

١ . قال أحد العلماء : الورع ترك الشبهات .

٢ . وقيل : ورع الظاهر أن لا يتحرك إلا لله تعالى ، وورع الباطن أن لا يدخل قلبك إلا الله تعالى .

٣ . وقال سفيان الثوري ﵀ : ما رأيتُ أسهل من الورع ، ما حاك[2] في نفسك تَرَكْتَه .

٤ . وقيل : هو أن تحفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم .

٥ . وسئل أحدهم :ما ملاك الدين ؟ فقال : الورع ، فقيل له : فما آفة الدين ؟ قال الطمع .

٦ . وقيل : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : لم يتقرّب إليّ المتقرّبون بمثل الورع والزهد .

٧ . وقال أبو الفوارس الكرماني ﵀ : علامة التقوى الورع ، وعلامة الورع الوقوف عند الشبهات .

٨ . وقال : اجتنبوا الكذب والخيانة والغيبة ثم اصنعوا ما بدا لكم .

---

(١) ينقع له الزبيب والتمر اي : يلقى في الماء لتخرج منه حلاوته إلى الماء .
(٢) حاك في النفس أي : تردّدت فيه النفس .

٩ . وقال : من غضّ بصره عن المحارم وأمسك نفسه عن الشبهات وعمر باطنه بدوام المراقبة وظاهره باتباع السنة وعوّد نفسه أكل الحلال لم تخطئ له فراسة .

١٠ . وقال شقيق ﷺ : أفضل أخلاق المرء أربعة الحلم عند الغضب ، والسخاوة عند القلة ، وصدق القول في كل حال ، والورع في الخلوة

١١ . وقال بعض العلماء : لا يتم الورع إلا أن يرى عشرة أشياء فريضة على نفسه : **أولها** حفظ اللسان من الغيبة ، و**الثاني** الاجتناب عن السخرية ، و**الثالث** الاجتناب عن سوء الظن ، و**الرابع** غض البصر عن المحارم ، و**الخامس** صدق اللسان ، و**السادس** أن يعرف منة الله كيْلا يعجب بنفسه ، و**السابع** أن ينفق ماله في الحق ولا ينفقه في الباطل ، و**الثامن** أن لا يطلب لنفسه العلوّ والكبر ، و**التاسع** المحافظة على الصلوات وأن يكون الاجتهاد لأن يصلي بالجماعة ، و**العاشر** الاستقامة على السنة والجماعة[١] .

صور من ورع السلف الصالح :

وقد رويت عن السلف الصالح قَصص في الورع نسوق بعضا منها :

١ . قيل :كان حسان بن أبي سنان ﷺ لا ينام مضطجعاً ، ولا يأكل سميناً ولا يشرب ماء بارداً .

٢ . و كان والد الحارث المحاسبي ﷺ قدريا يقول بالقدر[٢] ، وحين مات رأى الحارث من الورع أن لا يأخذ من ميراثه خشية أن يكون على غير ملة أهل السنة والجماعة ، للنهي عن التوارث بين المسلمين وغيرهم كما في حديث : « لا يتوارث أهل ملتين شيئاً » .

---

(١) المقصود ملازمة مذهب أهل السنة والجماعة .

(٢) القدرية هي فرقة مخالفة ظهرت في الخلافة الأموية ويرون أن القدر من صنع الإنسان وأن الإنسان خالق أفعاله .

٣ . وقال أبو علي الدقاق ﷺ : كان الحارث المحاسبي إذا مدّ يده إلى طعام فيه شبهة تحرّك على أصبعه عِرْقٌ[١] ، وقَدّم إليه الجنيد ﷺ يوماً طعاماً من وليمة عُرس لقريب له فلم يُسِغْه ، فقدّم له بعد أيام كِسَراً يابسة فأكل وقال : إذا قدّمتَ لفقير طعاماً فقدِّم إليه مثل هذا .

٤ . ومات صديق لحمدون القصّار ﷺ وهو عند رأسه ، فلما مات أطفأ حَمْدونُ السِّراجَ فقالوا له : في مثل هذا الوقت يزاد في السراج الدهن ، فقال لهم : إلى هذا الوقت كان الدهن له ، ومن هذا الوقت صار الدهن للورثة .

٥ . وقال الشعراني ﷺ : أخذ علينا العهود أن لا نُمَكِّنَ الخدام من الدخول على عيالنا ولو كانوا مخاصي .

وقد اختار السلف الصالح ترك الترفه في المطاعم والمشارب والملابس والمساكن ، وعلى هذا ينزل نهي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ ولده عن الجمع بين لونين[٢] فيما يظن الاكتفاء بأحدهما ، وأن يجعل ما يزاد على مقدار الحاجة في جهات الخير .

الفصل الثامن عشر : البعد عن الناس

ضرر الإفْراط في الاختلاط بالناس :

اعلم أن الخلوة ترك الاختلاط بالناس وإن كان بينهم ، و العزلة هي التبعد عن أرباب أهل الدولة بترك الطمع وعن أماني النفس وشهواتها بلزوم الورع .

وقد روي عن رسول الله ﷺ قوله : « السلامة في الوحدة والآفة بين اثنين ولتكن أبدانكم مع الناس وقلوبكم مع الله » ، وقال ﷺ : « لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل » . قيل هذا الزمان زمان الخلوة .

---

(١) العِرْق مجرى الدم في جسم الإنسان .
(٢) أي نوعين من الطعام .

واعلم أن من كثر اختلاطه بالناس فلا يُطمع في نواله حلاوة العبادة ، ومن أفرط في حب الدنيا خيف عليه سوء الخاتمة ، ومن اختار صحبة الظالم فلا ترجى فيه استقامة الدين ، ومن طلب رضا الناس فقلما ينال رضا الله تعالى عنه .

ومِن أنفع الأمور للعبد : دوام السكوت ، وملازمةُ البيوت ، والاعتزالُ عن الناس ملاحظاً أنه غيرُ لائق للخروج ، ومعتقداً أنَّه كالكلب العقور ؛ لا متكبِّراً ولا معجباً ، ولا شك أنه لا ينجو أحدٌ من الذنب مع المخالطة ، فإن قدر على حفظ اللّسان فلا بدَّ له من الاستماع ؛ والمستمعُ شريكُ القائل !

وحكي عن الجنيد ﵁ أنه قال : من أراد أن يسلم له دينه ويستريح بدنه فليعتزل الناس فإن هذا زمن وحشة[1] العاقل إلا من اختار الوحدة .

الفصل التاسع عشر : التواضع والخشوع

حقيقة التواضع والخشوع :

التواضع هو الاستسلام للحق ، وترك الاعتراض على الحكم ، والخشوع : قيام القلب بين يدي الحق سبحانه بهمّ مجموع . وقيل : الخشوع : تذلل القلوب لعلام الغيوب ، وقيل هو : ذُبول[2] يَردُ على القلب عند اطلاع الرب ، قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ « الفرقان ٦٣ » أي متواضعين متخاشعين ، بسكينة وتواضع ، وإذا خاطبهم الجاهلون أجابوهم بجواب يسلمون فيه من الوقوع في الاثم .

قال ﷺ : « إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد » ، وقال ﷺ : « حسب ابن آدم من الشر إلا من عصمه الله تعالى أن يشار إليه بالأصابع في دينه أو دنياه » وقال ﷺ : « ثلاث مهلكات :

(١) الوحشة هي الهم والخوف .
(٢) ذبولٌ أي : ذلٌّ .

شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » ، وقال ﷺ : « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان » وقال أبو يزيد البسطامي قدس سره : هتف بي هاتف : يا أبا يزيد خزانته تعالى مملوءة من العبادة ، فإن أردت الوصول إليه عز وجلَّ فعليك بالذلة والافتقار[١] .

علامات التواضع :

اعلم أن الكبر بطر الحق وغَمْط الناس[٢] ، ومن علامات الخشوع الانقياد للحق ، و خفض الجناح للخلق ، ولين الجانب لهم ، و قبول الحق من أي شخص كان ،و ترك التمييز في الخدمة ، وأن ترى أنْ لا أحد محتاج إليك ، لا في الدينٍ ولا في الدنيا ،و أن لا ترى لنفسك مقاماً ولا حالاً و لا ترى في الخلق من هو شر منك .

صور من تواضع السلف الصالح :

لقد كان السلف الصالح يتواضع بعضهم لبعض اقتداء بالنبي ﷺ فقد روي أنه ﷺ كان يعود المريض ويشيع الجنائز ويركب الحمار ويجيب دعوة العبد ، و يعلف البعير ويَقُمُّ البيت[٣] ويخصف النعل ، ويرقع الثوب ويحلب الشاة ويأكل مع الخادم ويطحن معه إذا أعيا[٤] ، وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى أهله ، وكان يصافح الغني والفقير ، وكان هين المؤنة ، لين الخلق كريم الطبيعة جميل المعاشرة طلق الوجه بَسَّاماً من غير ضحك ، محزونا من غير عبوسة ، متواضعاً من غير مذلة جواداً من غير سرف ، رقيق القلب ، رحيما بكل مسلم ، لم يتجشأ قط من شبع ، ولم يمد يده من طمع .

---

(١) لعل المراد أن كثيراً من السالكين جاؤوا إلى الله تعالى من طريق العبادات كالصيام والصلاة والصدقات ، ولكن قليلا منهم جاءه من طريق الذل والانكسار .
(٢) غمْط الناس احتقارهم والتهاون في حقهم .
(٣) يقمُّ البيت أي يكنسه .
(٤) أعيا أي : تعب .

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يسرع في المشي ويقول : إنه أسرع للحاجة وأبعد من الزَّهْوِ[١] ، وذهب مرة في حاجة له فقيل له هلا أمرتنا أن نحضرها لك ، فقال : ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر[٢] .

وقيل : ركب زيد بن ثابت ﷺ فدنا ابن عباس ﷺ ليأخذ بركابه فقال له : مه يا ابن عم رسول الله ! فقال ابن عباس : هكذا أمرنا ان نفعل بعلمائنا ، فأخذ زيد يد ابن عباس فقبلها ، وقال : هكذا أمرنا ان نفعل بأهل بيت رسول الله ﷺ .

وقال عروة بن الزبير ﷺ : رأيت عمر بن الخطاب ﷺ وعلى عاتقه قِرْبة ماء ، فقلت : يا أمير المؤمنين لا ينبغي لك هذا ! فقال : لما أتاني الوفود سامعين مطيعين دخلت في نفسي نخوة[٣] فأحببت أن أكسرها ، ومضى بالقربة إلى حجرة امرأة من الأنصار فأفرغها في إنائها .

ورؤي أبو هريرة ﷺ وهو أمير المدينة وعلى ظهره حُزْمة حطب وهو يقول : طرّقوا للأمير ! وقال ابن عباس ﷺ : من التواضع أن يشرب الرجل من سُؤْر أخيه .

وكتب عمر بن عبد العزيز ﷺ لابنه : بلغني أنك اشتريت فَصّاً بألف درهم ، فإذا أتاك كتابي هذا فبع الخاتم ، وأشبع ألف بطن ، واتخذ خاتماً من درهمين ، واجعل فصَّه حديداً صينياً ، واكتب عليه : رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه .

وقُوِّمت ثياب عمر بن عبد العزيز ﷺ وهو يخطب باثني عشر درهماً ، وكانت قباء وعمامة و قميصاً وسراويل وخفين وقلنسوة .

---

(١) الزَّهْو أي : الكِبر .
(٢) لعل المراد لم يُنقصْ ذهابه من قدره شيئا .
(٣) النخوة هنا الكبر والعظمة والفخر .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : سررت في إسلامي مرتين : مرة كنت في سفينة وفيها رجل مِضْحاك ، كان يقول : كنا نأخذ العلج[1] في بلاد الترك هكذا ، وكان يأخذ بشعر رأسي ويَهُزُّني ، فيسرني ذلك لأنه لم يكن في السفينة أحقر في عينيه مني . . والأخرى كنت عليلاً في مسجد فدخل المؤذن وقال : اُخرج ، فلم أطق ، فأخذ برجلي وجرّني إلى خارج المسجد .

وقال رحمه الله : ما سررت بشيءٍ كسروري حين كنت يوما جالساً فجاء إنسان وبال علي .

وقال أحد الصالحين : ليس من الكرم استخدام الضيف .

موعظة للمتكبرين :

تأمل يا أخي في كل شيء بعين البصيرة تجد الحق تعالى مع كل شيء وصانع كل شيء فكيف تحقر خلقه ؟ ! وحاصل الأمر أنه لا ينبغي أن يغيب عنك شهود التعظيم لخلق الله تعالى بالبصر والبصيرة ،واعلم أنه لا يكمل الفقير حتى لايرى في أحد عورة[2] قط ، ومادام يرى في الناس عورة فهو محتاج لمن يكمِّله ويؤدبه حتى يوصله إلى مقام التأهل لحضرات الملائكة والأنبياء والأولياء ، وقد وقع للشيخ محيي الدين بن العربي قدس سره أنه ركب البحر فهاجت الريح فقال : اسكن يا بحير فإن عليك بحرا من العلم ، فسكن البحر لقوله ، فخرجت له من البحر هايشة[3] فقالت له : يا محي الدين اسألك عن مسألة فإن أجبت عنها كنت عالما وإن لم تجب عنها فأنت جاهل ، فقال ما هي ؟ قالت : إذا مَسَخَ الله زوج المرأة ماذا تعتد ؟ هل تعتد عدة الأحياء أم عدة الأموات ؟ فما درى الشيخ ما يقول فقالت له الهايشة : تجعلني شيختك وأنا أجيبك عنها ؟ قال : نعم ، قالت : إن مسخ حيوانا اعتدت عدة الأحياء وإن

(١) العِلج هو الغليظ الجافي من الرجال .
(٢) العَورة هنا العيب .
(٣) هايشة أي : دابة عظيمة .

مسخ جمادا اعتدت عدة الأموات ، فمن ذلك اليوم ما سمع من الشيخ محيي الدين رائحة دعوى العلم حتى مات .

وتأمل قولك : لولا أني أخاف أن تتكبر نفس فلان لو تواضعت له لتواضعت له ، فإن قولك هذا في غاية الكبر ؛ لأنك أَثْبَتَّ لنفسك مقاما أعلى من مقام أخيك ثم تنَزَّلتَ له منه ، وأما تواضع العارفين فلا كبر فيه ؛ لأنهم لا يشهدون لهم مقاما على أحد من المسلمين وقد استعاذ الأنبياء من إبليس مع عصمتهم ، واستعاذوا من فتنة الدجال ، وقال سيدي علي الخواص ﷶ : فتنة الدجال هي خوف تصديقه فيما يدعيه من صفات الربوبية إذا أدركوه ، وروي أن الحق تعالى قال : « العظمة إزاري والكبرياء ردائي من نازعني واحدا منهما قصمته » .

فإياك يا بنيّ وإقامة الميزان على أحد ، فإن لله تعالى أربابا في صورة عبيد وعبيدا في صورة أرباب ، فإن الحق تعالى كثيرا ما يلبس عبده رداء العبودية فيجعله عبدا في عين نفسه سيدا في عيون الحاضرين ، واعلم أن من ظن أن نفسه خير من نفس فرعون فقد أظهر الكِبر ، و لا غريم أمطل من النفس ، ولا عدو أعظم من الشيطان ، ولا معارض أقوى من الهوى ، ولا يدفع المدد الهابط مثل الكبر ، لأن الغيث لا يقر إلا على الأرض المنخفضة لا فوق رؤوس الجبال ، فكذلك قلوب المتكبرين تنتقل عنها الرحمة وتنزل إلى قلوب المتواضعين ، والمراد بالمتكبرين من يردّ الحق لا من يكون ثوبه حسنا ، قال ﷺ : « ولكن الكبر بطر الحق » يعني دفعه واحتقار الناس ، ولا تعتقد أن الكبر لا يكون إلا في وزير أو صاحب دنيا ، بل قد يكون فيمن لا يملك عشاء ليلة . والكِبْر يفسد ولا يصلح ، لأنه تَكَبُّرٌ على خلق الله تعالى .

واعلم أن الظالمين وإن كانوا على هذه الشنيعة يجب أن لا ترى نفسك عليهم ، فإن السالك لو رأى نفسَه أفضل من الكلاب والذباب ؛ فهو محروم من كمالات الأكابر ، اللهم ؛ نعم يجوز لك أن تبغضهم لما أنهم تركوا الحق واتبعوا

الباطل وطُرِدوا عن طريق الله سبحانه ، فذلك بغضٌ في الله في الحال ، لكن من الممكن أن يتوبوا ويرجعوا أخيراً ، ويكونوا أحسن حالاً منَّا ، وقد سأل الشعراني ﷺ شيخه علياً الخواص ﷺ : كيف أرى نفسي وأنا عالم عامل دون الجاهل الفاسق ؟ فقال : التفاضل لا يقع في الذات حقيقة وإنما يقع في الصفات ، وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ « الكهف ١١٠ » ، فما فارق غيره إلا بالوحي مراعاة لمقام العبودية التي خلق لأجلها ،فعلم أن التفاضل لا يكون إلا في الأشياء الثابتة وأما العلوم والأحوال فإنها غير ثابتة فإذا سلبت يا أخي من العلم ذهب فضلك الذي رأيت به نفسك على الجاهل .

و قد افتخر رجلان عند موسى عليه السلام بالنسب والحسب ، فقال أحدهما أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة بتمامها فأوحى الله إلى موسى قل له : هم في النار وأنت عاشرهم .

واعلم أن ثلاثة أشياء هي من أفعال الكرام : **أولها** يحبون الإنفاق على المحتاجين ، **والثاني** يحبون العون لضعفاء المسلمين ، **والثالث** يحبون التواضع والاحتمال عن الخلق أجمعين ، وروى أبو سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « قُرَّاء الرحمن عزّ وجلّ أصحاب خشوع وتواضع ، وقراء القضاة[1] أصحاب عجب وتكبر .

وقيل : التواضع نعمة لا يُحسد عليها ، والكبر محنة لا يُرحم عليها ، والعز في التواضع فمن طلبه في الكبر لم يجده .

ولقد أخبر ﷺ أن من أحب أن يَتمثّلَ له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار ، وأُخذت العهود على السلف الصالح بإكرام الناس على قدر ما هم عليه من التواضع فأحق الناس بالإكرام والبشاشة أكثرهم تواضعا لله تعالى ولخلقه .

(١) لعل المراد من قراء القضاة الذين ذكرهم مَالِكَ بْنَ دِينَار قدس سره حين قال :إِنَّ مِنَ الْقُرَّاءِ قُرَّاءً ذَا الْوَجْهَيْنِ ، إِذَا لَقُوا الْمُلُوكَ دَخَلُوا مَعَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ ، وَإِذَا لَقُوا أَهْلَ الآخِرَةِ دَخَلُوا مَعَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ ، فَكُونُوا مِنْ قُرَّاءِ الرَّحْمَنِ .

و قال سيدي عبد القادر الجيلاني ما وصلت إلى الله بقيام ليل ولا بصيام نهار و لكن وصلت إلى الله تعالى بالكرم والتواضع وسلامة الصدر والنداء بلسان الذل والافتقار ورؤية الفضل والمنة من الله تعالى والتبري من الحول والقوة .

إنَّ حضرة الحق تعطي صاحبها الخشوع قال ﷺ : « ما تجلى الله عز وجل لشيء إلا خضع » ، ومتى ظهر من عبد قهر أو منازعة تحققنا أنه ليس في حضرة الله تعالى أصلا .

الفصل العشرون : النصيحة

اعلم أيها الأخ أنَّ الدين النصيحة كما أخبر بذلك النبي ﷺ حين قال :

« الدِّينُ النَّصِيحَةُ ، قالوا : لمن يا رسول اللّه ؟ ! قال : لِلَّهِ وكِتابِهِ وَرَسُولِهِ وأئمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعامَّتِهِمْ »

وللنصيحة آداب يجب على الناصح التزامها ، منها :

١ . إخلاص النية لله تعالى وأن لا يقصد بنصحه الشهرة أو شفاء الغيظ

٢ . وأن ينصح في ستر لا في الملأ ، لأن النصيحة في الملأ فضيحة

٣ . و أن يستعمل الرفق واللين في نصحه لئلا يكسر قلب المنصوح

٤ . وأن يعمل بما ينصح به ، لئلا يقع في مقت الله تعالى : قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ « الصف ٢ـ٣ » وإنَّ مِنْ أفْرضِ النصائح أنْ ينصح الإنسان نفسه ، ولا يُدخلَها مداخل السوء ولا يلقيها في مهالك الإنكار على أولياء الله تعالى ، فإن كان إنكاره عن جهل فيجب عليه التثبت أوّلاً ، ومطالعة كتب العلماء المشتملة على سيرهم وإرشادهم وتعبّدهم ، ويحرم عليه إنكار ما لم يعلم .

قال الله تعالى ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ « الإسراء ٣٦ » أي لا تتبع ما لا علم لك به ، فإن الله تعالى سائلك عن سمعك وقلبك وبصرك وما اجترحته في كل منها .

وقد آل الأمر إلى أن الأمور ثلاثة : أمْرٌ تبيَّنَ لك رُشدُه فاتَّبِعْه ، وأمر تبيَّن لك غيُّه فاجتنبه ، وأمر اخْتُلِف فيه فأرْجِعْهُ إلى عالمه .

الفصل الحادي والعشرون : المصافحة

اعلم أن عادة الصحابة ﷺ كانت إذا التقوا وإذا تفرَّقوا تصافحوا ﷺ ، وقد قال ﷺ : « تصافحوا ، فإن المصافحة تذهب بالشحناء » ، وقال ﷺ : « تمام التحية الأخذ باليد والمصافحة باليمنى » ، وقال ﷺ : « أول من عانق إبراهيم وكان قبلُ السجودُ ، يسجد هذا لهذا وهذا لهذا ، فجاء الإسلام بالمصافحة » وقال ﷺ « إذا التقى المسلمان فتصافحا وحمدا الله واستغفراه غفر الله لهما » وقال ﷺ « إذا التقى المسلمان فسلَّم أحدهما على صاحبه فإنَّ أحبَّهما إلى الله أحسنُهما بشراً بصاحبه ، فإذا تصافحا أنزل الله عليهما مائة رحمة ، للبادئ تسعون وللمصافح عشرة » .

الفصل الثاني والعشرون : بر الوالدين

اعلم يا ولدي أن أبرَّ البرِّ صلة الولد أهلَ ودِّ أبيه كما أخبرنا بذلك حبيبنا محمد ﷺ ، وأن عقوق الوالدين من جملة الكبائر ، قال ﷺ : « من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ، قالوا يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال « يَسُبُّ أبا الرجلِ فَيَسُبُّ أباه وَيَسُبُّ أُمَّه فَيَسُبُّ أُمَهُ » .

وقد أوصى الله تعالى ببر الوالدين فقال في محكم تنزيله : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ « الإسراء ٢٣_٢٤ » .

فقد أمر تعالى كل مكلف أن لا يعبد إلا إياه وقرن ذلك بالأمر بالإحسان للوالدين لمناسبة ذلك ، فكما أنه تعالى سبب الوجود وهو الرب المربي على الحقيقة ، فالوالدان سبب الوجود الظاهري والمربيان في ظاهر الأمر ، وهما أول مظهر ظهرت فيه صفات الحق تعالى من الإيجاد والربوبية والرحمة بالنسبة إلى الإنسان ، ولذا قال ﷺ « بر الوالدين أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله » ويتأكد الأمر بالإحسان إليهما عند كِبَرهما في السنِّ لمزيد حاجتهما إلى ذلك في تلك السن ، لذا جاء النَّهي عن التقذّر[١] والتضجّر[٢] منهما ، ولو بكلمة « أفٍّ » وهي كلمة تقال عند التضجّر ، وقال ابن عباس رضي الله عنه : لو كانت كلمة أصغر من أف لنهى عنها سبحانه .

الفصل الثالث والعشرون : الحزن

اعلم أن الحزن من أوصاف أهل السلوك ، وأن الله يحب كل قلب حزين ، وأنه تعالى إذا أحب عبداً جعل في قلبه نائحة ، وإذا أبغض الله عبداً جعل في قلبه مزماراً ، وقد كان ﷺ متواصل الأحزان دائم الفكر ، والقلب إذا لم يكن فيه حزن خرب ، كما أن الدار إذا لم يكن فيها ساكن تخرب ، وإنما يستدل على حزن الرجل بكثرة أنينه ، والحزن يمنع صاحبه عن الطعام ، و أكثر ما يجده المؤمن في صحيفته من الحسنات الهم والحزن ، وكما أن على كل شيء زكاة ، فزكاة العقل طول الحزن .

قال سفيان بن عيينة رحمه الله : لو أن محزوناً بكى في أمة لرحم الله تعالى تلك الأمة ببكائه .

الفصل الرابع والعشرون : الجوع

اعلم أن الجوع من صفات القوم وهو أحد أركان المجاهدة ، وأدبه أن لا ينقص من عادته إلا مثل أُذُن السِّنَّوْر ، وإن الجوع نور والشبع نار ، ولا تطفأ

---

(١) التقذّر أي : إظهار الاستقذار .
(٢) التضجّر من الضجر وهو إظهار الملل والضيق .

ناره حتى يحرق صاحبه ، ولما كان الشبع مفتاح الدنيا كان الجوع مفتاح الآخرة ، روي أنه جاءت فاطمة ﵂ بكِسْرة خبز لرسول الله ﷺ فقال : ما هذه الكسرة يا فاطمة ؟ فقالت : قرصٌ خَبَزْتُه ، ولم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة ، فقال : أَمَا إِنَّه أول طعام دخل فم أبيكِ منذ ثلاثة أيام » .

وحين بكى أحد المشايخ من الجوع ، سئل فقال : أما علمتَ أن مراده تعالى من جوعي أن أبكي ؟ ! و سئل أحدهم : الرجل يأكل في اليوم أكلة ، فقال : أكل الصديقين ، فقيل : فأكلتين ؟ قال : أكل المؤمنين ، فقيل : فثلاثة ؟ فقال : قل لأهلك يبنون لك معلفاً .

وقال أحد التلاميذ : أمرني أبو عبد الله بن خفيف ﵁ أن أقدم له كل ليلة عشر حبات زبيب لإفطاره ، فليلة أشفقتُ عليه و حملتُ إليه خمس عشرة حبة ، فنظر إليّ وقال : من أمرك بهذا ؟ وأكل عشر حبات وترك الباقي .

الفصل الخامس والعشرون : الاستقامة

اعلم أن الاستقامة هي الخروج عن المعهودات ومفارقة الرسوم والعادات والقيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق ، فكن أيها الولد أمين السرِّ والعلانية ، وادخل في دائرة الاستقامة ، فهي أعزُّ من الكرامة ، واعلم أن من كمال التقوى وجود الاستقامة ، وهي حمل النفس على أخلاق القرآن والسنة ، كقوله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ الأعراف : ١٩٩ ، وكن مع أهل زمانك للصغار والداً ؛ وللكبار مولوداً ، وادع الناس إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالمعروف ، وكن ليِّنَ العريكة ، وكلِّم الناس على قدر عقولِهم ، عسى الله أن يجعلَك أميناً ، ويجعل زمرةَ المؤمنين أعواناً ، ولا تخرج عن دائرة الاستقامة ولا تأمَن من مكر الله ، فإنه أخفى من الخفيِّ .

ولقد قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾ « فصلت

٣٠ » ، و معنى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أي : أخلصوا العمل لله وعملوا بطاعة الله على ما شرعه لهم ، قال أبو بكر الصديق ﷺ : ثم استقاموا فلم يلتفتوا إلى إله غيره ، وقال عمر ﷺ : أي لم يروغوا روغان الثعالب[1] وقال ﷺ : « استقيموا ولن تُحصوا ، واعلموا أن خير دينكم الصلاة ، ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » .

واعلم أن الاستقامة درجة بها تمام الأمر وكماله ، وهي مقام لا يطيقه إلا الأكابر ، يؤيده ما حكي عن بعض المشائخ أنه رأي النبي ﷺ في المنام فقال له : يا رسول الله ! روي عنك أنك قلت :« شيبتني سورة هود » ، فما الذي شيبك فيها قصص الأنبياء وهلاك الأمم ؟ قال : لا ، ولكن قوله تعالى : « فاستقم كما اُمِرْت » .

الفصل السادس والعشرون : المداراة

اعلم يا ولدي أن من عاش مدارياً عاش شهيداً ؛ لأن مداراة الناس من أخلاق الأنبياء والصديقين ، ومن كان سهلاً هيناً ليناً حرّمه الله على النار ؛ ومن ثَمَّ كان ﷺ في غاية اللين ، وكان إذا ذكر أصحابه الدنيا ذكرها معهم ، وإذا ذكروا الآخرة ذكرها معهم ، وإذا ذكروا الطعام ذكره معهم .

وقال عمر ﷺ : إنكم بين الشدة والغِلْظة ، وكان ﷺ مع خادمه وعبيده بل مع عامة أصحابه في سهل ورأفة .

وقال تعالى ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ « الأحزاب ٤٣ » وفي آية أخرى ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ « التوبة ١٢٨ » أي : جاءكم رسولٌ يشاكلكم فى البشرية ، فلما أَفْرَدْناه به من الخصوصية ألبسناه لباس الرحمة عليكم ، وأقمناه بشواهد العطف والشفقة على جملتكم ، وأَكْبَرُ هَمِّه إيمانكم .

(١) وراغ الثعلب حاد وذهب يمنة ويسرة في سرعة وخديعة .

فالمعنى : قد جاءكم أيتها العرب رسول عربى مثلكم وعلى لغتكم وذلك أقرب إلى الألفة وأبعد من اللجاجة ، وأسرع إلى فهم الحجة ، فإن الإرشاد لا يحصل الا بمعرفة اللسان ، و لأنه أول جوهر خلقه الله تعالى ، وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ سأل جبريل ﵇ فقال « يا جبريل كم عمرك من السنين » فقال يا رسول الله لست أعلم غير أن في الحجاب الرابع[1] نجماً يطلع في كل سبعين ألف سنة مرة رأيته اثنين وسبعين ألف مرة فقال ﷺ « يا جبريل وعزة ربي أنا ذلك الكوكب » ولما خلق الله آدم ﵇ جعل نور حبيبه ﷺ فى ظهره فكان يلمع فى جبينه ، فوجوده الشريف وعنصره اللطيف أفضل الموجودات الكونية ، وروحه المطهر أَمْثَل الأرواح القدسية ، وقبيلته أفضل القبائل ، ولسانه خير الألسنة ، وكتابه خير الكتب الإلهية ، وآله وأصحابه خير الآل ، وخير الأصحاب ، وزمان ولادته خير الأزمان ، وروضته المنورة أعلى الأماكن مطلقا ، والماء الذي نبع من أصابعه الشريفة أفضل المياه مطلقا ، وقوله تعالى : حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ أي على إيمانكم وصلاح أحوالكم ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ : أي لا رأفة ولا رحمة الا بالمؤمنين ، ومن ثمه قيل : الرفق في الأمور كالمسك في العطور .

الفصل السابع والعشرون : العدل

اعلم أن العدل هو عدم متابعة النفس على ما تشتهيه ،وقد أخبر النبي ﷺ أن عدل ساعة خير من عبادة ستين سنة ، وحين دعا موسى ﵇ على فرعون بهلاكه أوحى الله إليه : يا موسى ما ضرني كفره ، ولعبادي نفع من عدله ، فلما قرن مع كفره ظلما أغرقه الله في اليم !

الفصل الثامن والعشرون : الحب في الله والبغض فيه

اعلم يا أخي أنه لا يتم لمحب الدنيا عدم كراهة أحد من الناس أبدا ، وقد بين ذلك رسول الله ﷺ حيث ربط الزهد بمحبة الناس ، فقال : « ازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس » فأعداء الناس على حسب محبته في الدنيا .

(١) لعلّ المقصود السماء الرابعة .

ثم إذا أبغضت فلا تبغض إلا الصفات لا الذوات ، لأن الذات واحدة من حيث إنها ملك لله وخَلَقَها بيده ، وتأمل قوله ﷺ حين سئل عن الثوم : « إنها شجرة أكره ريحها » ، ولم يقل أكرهها .

وأعلمك يا أخي ميزانا تعرف به معاداتك للناس هل هي لله تعالى أو لهوى النفس وهو أن تعرض أعمال ذلك الرجل الذي كرهته على الكتاب والسنة فإن كانت أعماله محمودة فيها فأحببه ، وإن كانت مذمومة فأبغضه كيلا تحبه بهواك وتبغضه بهواك ، فقد أخذ علينا العهود أن لا نكره أحدا من المسلمين لحظ النفس ، وأما أهل المعصية والفسق المجاهرون ، فعلينا أن نبغضهم في الله تعالى ، وليس ذلك من سوء الظن في شيء .

الفصل التاسع والعشرون : القناعة

اعلم أن القناعة هي ترك التشوّف إلى المفقود والاستغناء بالموجود ، ورضا النفس بما قسم لها من الرزق ، وإن القانع غني وإن كان جائعاً ، والعاقل من دبّر أمر الدنيا بالقناعة والتسويف ، وأمر الآخرة بالحرص والتعجيل وأمر الدين بالعلم والاجتهاد .

ومن لزوم القناعة أن يأكل أكلة واحدة في كل يوم وليلة فمن أكل مرتين فلا يسمى قانعاً ، وقد وضع الله تعالى خمسة أشياء في خمسة مواضع : العز في الطاعة ، والذل في المعصية ، والهيبة في قيام الليل ، والحكمة في البطن الخالي ، والغنى في القناعة ، وقال الكتاني رحمه الله : من باع الحرص بالقناعة ظفر بالعز والمروءة .

و قال أحد الصالحين : كنت جالساً عند الجنيد قدس سره أيام الموسم[1] ، فجاءه إنسان بخمسمائة دينار ووضعها بين يديه ، وقال : تُفَرِّقها على هؤلاء الفقراء ، فقال : ألك غيرها ؟ فقال : نعم لي دنانير كثيرة ، فقال :

(١) أي : موسم الحج .

أتريد غير ما تملك ؟ فقال : نعم ، فقال له الجنيد : خذها ، فإنك أحوج إليها منا ، ولم يقبلها .

الفصل الثلاثون : الصَّمت

اعلم يا بنيّ أن الصَّمت صفة الرجال ، وهو من آداب الحضرة ،و إذا كان العبد ناطقاً فيما يعنيه وفيما لا بد منه فهو في حد الصمت ، وقد حثَّ عليه النبي ﷺ فقال : « أمسك عليك لسانك ، ومن صمت نجا ، وليسعك بيتك ،وابك على خطيئتك » ، فإذا أعجبك الكلام فاصمت وإذا أعجبك الصمت فتكلم .

الفصل الحادي والثلاثون : الخمول

واعلم أن المصلحة في الخمول ، وترك الإظهار والشهرةِ في كل أمر ؛ نظراً إلى حال العصر وأهله ، وقد قيل :

الشهرة آفةٌ وكلٌّ يتمناها والخمول راحة وكلٌّ يتوقاها

وقال بشر رحمه الله : لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس ، وقد نصح أحد المشايخ تلميذه فقال : كُن دائماً في الذلِّ والانكسار ؛ و لا تدخل في أهوال الدنيا و مواطن الاشتهار ، وذَرْ الدنيا والفخر لأهلها ، وكن على مكارهها وذوق مرارتها ، وكن مُعتبراً بمن مات من الإخوان والخلاّن ، واعلم أنهم لا يزالون عن مكانهم حتى نلحق بهم ونكون معهم .

الفصل الثاني والثلاثون : زيارة الإخوان في الله

رويَ أنَّ أخوين في الله التقيا ، فقال أحدهما للآخر : مِن أين أقبلت ؟ قال : حججتُ بيت الله الحرام وزرت قبر النبي ﷺ ، فأنت من أين أقبلت قال : من زيارة أخ أحبُّه في الله ، قال : فهل تهبُ لي فضلَ زيارتك حتَّى أهب لك فضل حجي ؟ فأطرق الآخر رأسه مليّاً – أي : زماناً – فإذا بهاتف يقول :

زيارةُ أخ في الله أفضلُ عند الله من مائة حجة نافلة ، والنبي ﷺ يقول : « مَنْ زَارَ أَخَاهُ المسْلِمَ شَيَّعَهُ سَبْعُونَ ألفَ مَلَكٍ » .

وسأل الشعراني قدس سره شيخه علياً الخواص قدس سره : هل أزور إخواني في هذا الزمان أم أترك الزيارة خوفا أن أشغلهم بزيارتي عن أمر هو أهم منها ؟ فقال : حرر النية الصالحة أولا ثم زر فليس اللوم إلا على من يزور لغرض نفسيٍّ .

الفصل الثالث والثلاثون : الشكر

حقيقة الشكر :

اعلم أن الشكر هو إقرار العبد بأنه عاجز عن الشكر ، وهو كما قال الجنيد قدس سره عنه : الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة ، وحقيقته الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع ، و رؤية المنعم لا رؤية النعمة ، وقيل هو معرفة قائمة بالقلب وكلمة قائمة باللسان .

الشكر محض نعمة من الله تعالى :

واعلم أن الشكر بحدّ ذاته نعمة من الله تعالى إذ لولا توفيقه لك لشكره لما قدرتَ عليه ، حتى قال بعض الصالحين : إلهي كيف أشكرك وشكري لك نعمة من عندك ؟ فأوحى الله إليه : الآن قد شكرتني ، ولما قال موسى عليه السلام : إلهي خلقت آدم وفعلتَ وفعلتَ فكيف شَكَرَكَ ؟ فقال : عَلِمَ أن ذلك مني فكانت مَعرِفته بذلك شُكْرَهُ لي .

الله تعالى وحده يستحق الشكر والثناء :

وكان مما أخذ على الصالحين من العهود شكر الله تعالى على المنع كشكره على العطاء ، فإنَّهم رعيته تعالى وقد أَمِنوه على أنفسهم[1] وهو تعالى أكرم من أن يخون عبدا استأمنه ، كما أخذ عليهم العهود أن لا يُظْهروا خُلُقا

(١) أي : جعلوا أنفسهم أمانة عنده .

محموداً إلا على وجه الشكر لله تعالى ، أو ليقتدى بهم في ذلك ، فإن لم يكن مشهدهم ذلك أَخْفَوا جميع أخلاقهم المحمودة ونَوَوْا بذلك وجه الله تعالى ، ولم يَتَصدّروا[1] قط في المحافل ؛ غيرة منهم على الحق تعالى أن يُزاحِموه في صفات الحمد في هذه الدار ، وقد بين الإمام الغزالي ﵁ أن للمدح ضررا كبيرا على الممدوح ، فإن المدح يحدث فيه عجبا وكبرا وقد يفرح الممدوح بالمدح فيفسد عمله ، ولذا قال رسول الله ﷺ : « إذا رأيتم المَدَّاحين فَاحْثوا في وجوههم التراب » ، وقيل : إذا مُدِحْتُم فَتَذَكَّروا أنكم من تراب وتواضعوا ، ولا تُعْجَبوا بالمدح .

ومن كلام سيدي أبي الحسن الشاذلي ﵁ : إذا أراد الله بعبدٍ خيرا ستر عنه كمالات نفسه ، وجعله عبدا مملوكا لا ربوبية فيه تظهر ، فإن كل شيء أَلِفَتْهُ النفس من العلوم والمعارف فعلى العبد أن يرمي به ، وإن كان كشفاً وحالاً ، وما يضرّ ذا العبدَ إذا رضيه الحق تعالى عبدا ولا علم ولا عمل ؟ !

أدنى درجات الشكر :

لقد ذكر العلماء أن أدنى درجات الشكرِ شكرُ اللسان ، فلا أعجز ممَّن عجز عن شكر اللسان ، وليكن ذلك بالوجوه الجامعة للشكر ، فأعلى ذلك في شكر اللسان تلاوةُ الفاتحة ؛ في مقابلة ما أنعم الله تعالى عليه شكراً ، وَلْيَنْوِ عند تلاوتها أنه يستغرق في شكر جميع ما أحاط به علمُ الله من نعمه عليه ؛ الظاهرة والباطنة ، والحسيّة والمعنوية ، والمعلومة عند العبد ، والمجهولة لديه ، والعاجلة والآجلة ، والمتقدِّمة والمتأخِّرة ، والدائمة والمنعدمة ، ويتلو بهذه النية ما قَدَر عليه من الفاتحة من مرة إلى مائة ، فمن فعل ذلك كتبه الله تعالى شاكراً ، أو كان ثوابه المزيدَ من نعمه على قدر نيته بحسب وعده الصادق .وأما وجوه المحامد الجامعة فهي كثيرة لا

(١) أي : لم يتقدّموا في المحافل .

نطيل بذكرها ، مثل قوله ﷺ : « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ، و قال آدم عليه السلام : « يا رَبِّ ! شَغَلْتَنِي بِكَسْبِ يَدِي ، فَعَلِّمْنِي شَيْئاً فِيهِ مَجَامِعُ الحَمْدِ وَالتَّسْبِيحِ ، فأوحى الله تبارك وتعالى إليه : يا آدَمُ ! إِذَا أَصْبَحْتَ فَقُلْ ثَلاثاً ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَقُلْ ثَلاثاً : الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ حَمْداً يُوافِي نِعَمَهُ وَيُكافِىءُ مَزِيدَهُ ، فَذَلِكَ مَجَامِعُ الحَمْدِ وَالتَّسْبِيحِ » .

والفرق بين الشاكر والشكور أن الشاكر هو الذي يشكر على العطاء والشكور هو الذي يشكر على المنع ، ولكل نعمة شكر يليق بها ، فشكر العينين غضّهما عن محارم الله وعيوب الناس ، وشكر الأذنين التصامم عن عيوبهم وشكر اليدين كفّهما عن أموال الناس وشكر الرجلين كفهما عن المشي في معصية الله وكذلك سائرالأعضاء ، وحقيقة الشكر أن تصرف جميع ما أنعم الله به عليك فيما خلق لأجله ، فيشمل ذلك المال والبدن والأعضاء الظاهرة والباطنة ، فمتى استعملت شيئا منها في غير ما خلق له ، كان ذلك كفرانا لتلك النعمة .

الحامدون الله على كل حال :

وقد أخبر ﷺ أن أول من يدخل الجنة الحامدون لله على كل حال ، وفي رواية : الحامدون لله على السراء والضراء ، وقال ﷺ : « الحمد لله شكر كل نعمة » .

يحكى عن السري قُدِّسَ سِرُّهُ أنه قال : منذ ثلاثين سنة أنا في الاستغفار من قولي الحمد لله ، مرة ! فقيل له : وكيف ذلك ؟ ! فقال : وقع ببغداد حريق فاستقبلني رجل فقال لي : نجا حانوتك ، فقلت الحمد لله ، فمنذ ثلاثين سنة أنا نادم على ما قلت حيث أردت لنفسي خيرا مما حصل للمسلمين !

وقيل : التزم الحسن بن علي رضي الله عنهما الركن وقال : إلهي أنعمت علي فلم أشكر وابتليتني فلم أصبر فلم تسلب النعمة لترك الشكر ولا أدمت البلاء لترك الصبر إلهي ما يكون من الكريم إلا الكرم .

الفصل الرابع والثلاثون : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

اعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الدلالة على الخير والمنع عن الشر ،وعن ابن عباس ﷺ أنه قال :قلت : يا رسول الله تُخسَفُ الأرض وفيها الصالحون ؟ قال « نعم ، بادّهانهم[١] وسكوتهم عن المعاصي » ، وعنه ﷺ « يحشر يوم القيامة أناس من أمتي من قبورهم إلى الله عز وجل على صورة القردة والخنازير بما داهنوا أهل المعاصي وكفُّوا عن نهيهم ويستطيعون[٢] » وقال ﷺ : « يا أبا هريرة مر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك »

وقد قال الإمام أبو سعيد الخادمي ﷺ في « البريقة المحمودة » : إنَّ المداهنةَ في الشرع عدمُ تغيير المنكر مع القدرة عليه ، رعايةً لجانب مرتكبه أو لجانب غيره ، أو لقلّة المبالات بالدين . انتهى . وقال الإمام البركوي ﷺ في « الطريقة المحمدية » : فهذا حرام .

ولا ينبغي السكوت رأساً عن إظهار الحق وإعلان الباطل ، فإن الساكت عن الحق شيطانٌ أخرس ، والمداهنون يحشرون على صورة القِرَدة والخنازير ، وأْمُرْ بالعرف وانْه عن المنكر ، وخذ من خبر : « الدَّالُّ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ » حظّاً ، ولا تخفْ من لوم أحدٍ في الدين ، واعمل بالعلم ولو بعُشْر ما تعلم ، فقد روى الترمذي عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً : « إنَّكُمْ فِي زَمَانٍ مَنْ تَرَكَ مِنْكُمْ عُشْرَ مَا أُمِرَ بِهِ هَلَكَ ، وَسَيَأْتِي زَمَانٌ مَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ بِعُشْرِ مَا أُمِرَ بِهِ نَجَا » .

ومنهم من يغيره بلسانه ، وهم العلماء ، فيغيرونه بسياسة ولطف لا بعنف وتكبّر ، ومنهم من يغيره بقلبه ، وهم المشائخ والأولياء الكاملون ، وكان سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ يقول : تغيير المنكر باليد للولاة ومن قاربهم ، وتغييره باللسان للعلماء العاملين ، وتغييره بالقلب لأرباب القول .

(١) من المداهنة .
(٢) أي : كفوا عن نهيهم مع كونهم يستطيعون ذلك .

واعلم يا بني أن المفسدة المترتبة لإنكار من ليس أهلا للإنكار أعظم من المصلحة الناتجة عنها ، ومن شأن المريد ألا يتصدر قط لإزالة منكر ، وقد بلغنا أن جماعة من الشباب كانوا يعبدون الله تعالى ويأكلون من عمل يدهم فكان إبليس كلما أراد ان يقترب من أحدهم كاد أن يحترق فبينما هم يوما في مجلس الذكر إذ حرَّشَ جماعةً من العيَّاق[1] كانوا بالقرب من هؤلاء الذاكرين ، فوقعوا في ضرب بعضهم بعضا بالعصيِّ حتى جرت منهم الدماء ، وكان قصده أن هؤلاء الذاكرين يقولون في أنفسهم إن تخليصنا هؤلاء أفضل مما نحن فيه لأنه خير متعدي النفعِ ، فتركوا مجلس الذكر ، و جاؤوا يخلصون بينهم ، فوقع العياق فيهم بالضرب ، فاشتغلوا بهم عن الذكر وغيره ، ففرح بذلك إبليس ، وكان جلُّ قصده إبطال مجلس الذكر لا غير .

وقد حكي أن رجلا جاء إلى بعض السلف شكا له من جار له يعمل بالمعاصي ، فقال له : هل قمت ليلة إلى الصباح من أجله ؟ قال لا ، قال : قم سبع ليال لأجله وادع الله عز وجل له ، فإن الله تعالى يتوب عليه فإن فعلت ذلك ولم يتب فاعلم أنك شر منه فاشتغل بنفسك .

الفصل الخامس والثلاثون : التقوى

اعلم أن التقوى هي أن لا ترى في قلبك شيئا سوى الله ، ولها ظاهر وباطن : فظاهرها محافظة الحدود ، وباطنها النية والإخلاص ، وقد عدّها الله تعالى خير الزاد فقال : ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ « البقرة ١٩٧ » وقال العلماء : لا زاد كالتقوى ، وعدّوا من الحق أن تقام النوائح على فقدان تقوى الله من القلوب ، وقالوا : كل عالم لم يكن في علمه أربعة أشياء : التقوى فيما بينه وبين الله ، والزهد فيما بينه وبين الدنيا ، والتواضع فيما بينه وبين الناس ، والمجاهدة فيما بينه وبين النفس ، فلا يعتد به ولا يوثق

---

(١) العيّاق جمع عائق ، وهم صانعوا المشاكل .

بعلمه ؛ لأنه كمثل الحمار يحمل أسفارا ، وحين سئل رسول الله ﷺ : ما أكثر ما يُدْخِل الناسَ الجنةَ ؟ قال ﷺ : « تقوى الله وحسن الخلق » .فقيل ما أكثر ما يُدخل الناسَ النارَ ؟ قال : « الأَجْوَفان الفم والفرج » .

الفصل السادس والثلاثون : التوكل

حقيقة التوكل :

اعلم أن التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب ، ومعنى ذلك أن يستوي عندك الإكثار والتقلل ، وقد قال العلماء في تعريفه عبارات كثيرة ، منها :

١ . طرح البدن في العبودية وتعلق القلب بالربوبية ، والطمأنينة إلى الكفاية

٢ . ترك تدبير النفس .

٣ . الثقة بما في يد الله تعالى واليأس عما في أيدي الناس .

٤ . الاكتفاء بالله عز وجل والاعتماد على الله عز جل .

٥ . وقال جبريل عليه السلام : التوكل هو الإِياس عن الخلق وأن تعلم أن المخلوق لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع ، وحق التوكل صرف القلب عن كل شيء سوى الله .

والتوكل صفة الأنبياء عليهم السلام ، والتسليم صفة إبراهيم عليه السلام ، والتفويض صفة نبينا محمد ﷺ ، وإن المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه ، كذلك المتوكل لا يهتدي إلا إلى ربه تعالى .

علامات المتوكل :

وللمتوكل علامات يعرف بها ، ومن علامة المتوكل : أن لا يسأل ولا يرد ولا يحبس . وأكمل أحواله أن يكون بين يدي الله تعالى كالميت بين يدي الغاسل ،

لا يكون له حركة ولا تدبير ، فعليك بإسقاط التدبير ، وأنت تعلم أن الله تعالى كان لك قبل أن تكون لنفسك ، فكما كان لك قبل أن تكون ، يكون لك بعدك ، وعليك برفع الهمَّة عن الخلق ، فإنه ميزانُ الفقراء ، ومِسْبارالرجال[1] ، وكما توزن الذوات ؛ توزن الأحوال والصفات ، ولا تهتمَّ في أمر المعيشة ، فإن الله تعالى كان لك قبل أن يخلقك ، فحاشا أن ينساك بعد وجودِك في عرصة الظهور ، فما قام به غيرُك عنك لا تقم به لنفسك ، وقال بشر الحافي ﷺ : يقول أحدهم : توكلت على الله ويكذب على الله ، لو توكل على الله لرضي بما يفعله الله به .

التوكل لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب :

واعلم أن التوكل حال النبي ﷺ والكسب سنته ، فمن بقي على حاله فلا يتركن سنته ، ومن طعن في الحركة فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان ، واعلم أن التوكل محله القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بالقلب .

عن أنس بن مالك ﷺ قال : جاء رجل على ناقة له فقال يا رسول الله أدعها وأتوكل ؟ فقال : « اعْقِلْها وتوكّل » ، وقد كان إبراهيم الخواص ﷺ من أهل التوكل وكان لا يفارقه إبرة وخُيوط ورَكْوة ومِقراض ، وكان يقول : إذا رأيت الفقير بلا ركوة ولا إبرة ولا خيوط فاتَّهمه في صلاته .

وليس من التوكل ترك الأسباب وإغفال الحزم في الأمور ، بل على العاقل أن يتكيَّس في الأمور بأن يتيقظ فيها ويطلب أسباباً جرت عادة الناس على ارتباط تلك المطالب بها ،وقضية هذا : أنَّ التوكل من لوازم الإيمان ، فينتفي بانتفائه ؛ إذ الإيمان هو التوحيد ، ومن اعتمد على غير الله لم يوحِّده بالحقيقة ؛ وإن وحَّده باللسان . وليس المراد من التوكل ترك السبب والاعتماد على ما يأتي من المخلوقين .

---

(١) مِسبار الرجال أي : مقياس الرجال .

وإن الدواء المحصل للتوكل ملازمة خمسة أشياء : أحدها أن يلحظ أن الله تعالى عالم بحاله ، وثانيها : اعتقاد كمال قدرته تعالى ، وثالثها : اعتقاده تنزيه الله تعالى عن النسيان والسهو ، ورابعها : أن يلحظ أنه منزه عن الإخلاف بالوعد ، وخامسها اعتقاده أنه الكريم الجواد .

كلمات ذهبية في التوكل :

وقد نُقلتْ كلمات في بيان حقيقة التوكل منها :

١ . قال ﷺ : « من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله » .

٢ . سئل يحيى بن معاذ ﵀ متى يكون الرجل متوكلاً ؟ فقال : إذا رضي بالله تعالى وكيلا .

٣ . وسئل ابن عطاء ﵅ عن حقيقة التوكل فقال : أن لا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدة فاقتك إليها ، ولا نُزولٌ عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك على الأسباب .

٤ . وقال أبو حاتم السجستاني ﵀ : شرط التوكل ما قاله أبو تراب النخشبي : وهو طرح البدن في العبودية وتعلق القلب بالربوبية ، والطمأنينة إلى الكفاية ، فإن أعطي شكر وإن منع صبر .

٥ . وقال ذو النون ﵅ : التوكل ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة إذا علم أن الله سبحانه وتعالى يعلم ويرى ما هو فيه .

٦ . وقيل : التوكل هو ردّ العيش إلى يوم واحد ، وإسقاط همّ الغد .

٧ . وقال سهل بن عبد الله ﵀ التوكل الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد .

٨ . وقيل : التوكل صفة المؤمنين ، والتسليم صفة الأولياء ، والتفويض صفة الموحدين ، فالتوكل صفة العوام ، والتسليم صفة الخواص ، والتفويض صفة خواص الخواص .

٩ . وقال ذو النون ﵀ : التوكل : خلع الأرباب[١] وقطع الأسباب ، فقال السائل زدني ، فقال : إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية .

١٠ . و سئل أبو عبد الله القرشي ﵀ عن التوكل فقال : التعلق بالله تعالى في كل حال .

١١ . وسئل أحد العلماء : إيش التوكل ؟ فقال : الأخذ من الله تعالى[٢] .

١٢ . وقيل : للمتوكل ثلاث درجات : التوكل ثم التسليم ثم التفويض ، فالمتوكل يسكن إلى وعده تعالى .

١٣ . وقيل :صاحب التسليم يكتفي بعلمه ،وصاحب التفويض يرضى بحكمه .

١٤ . وقال أبو الدرداء ﵁ : ذروة الإيمان الإخلاص والتوكل ، والاستسلام للرب عز وجل .

١٥ . وقال بعضهم : إذا خَيَّرَكَ الله تعالى في شيء فإياك أن تختار وفِرَّ من اختيارك إلى اختياره فإنك جاهل بالعواقب .

١٦ . وفي التوراة : ملعونٌ من ثِقَتُه إنسانٌ مثله .

١٧ . وقالوا : من اعتصم بالله واستعان به أحوج الله إليه الناس ، وأنطقه بالحكمة

١٨ . وقيل لأبي يزيد ﵀ : ما التوكل ؟ فقال : ما تقول أنت ؟ فقال السائل : إن أصحابنا يقولون : لو أن السباع والأفاعي عن يمينك ويسارك ما تحرّك لذلك سرك ، فقال أبو يزيد نعم هذا قريب ، ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة يتنعمون وأهل النار في النار يعذبون ثم وقع لك تمييز عليهما خرجت من جملة التوكل[٣] .

---

(١) خلع الأرباب فيه إشارة إلىٍ رؤية العبد أنْ ليس في الوجود فاعل ومؤثر إلا الله تعالى .
(٢) بأن لا ترى للأسباب مدخلاً بل ترى أن كل ما تأخذه هو من الله تعالى .
(٣) لعل المراد : أن لا يحدث عند العبد تمييز لو ألقاه الحق تعالى في الجنة أو في النار ، بل يكون فاقد الاختيار كالمييت بين يدي الغاسل .

١٩ . وقال أبو بكر الوراق ﵀ : لو قيل للطمع من أبوك لقال : الشك في المقدَّر[١] ، ولو قيل ما حرفتك ؟ لقال اكتساب الذل ، ولو قيل ما غايتك ؟ قال : الحرمان .

٢٠ . وقال الشاذلي ﷺ : خمس من لم يكن فيه شيء منهن فلا إيمان له : التسليم لأمر الله والرضا بقضاء الله والتفويض إلى أمر الله والتوكل على الله والصبر عند الصدمة الاولى .

٢١ . وقيل : اقطع رجاءك عن البلدان وتوكل .

فضيلة التوكل :

اعلم أنه ليس في المقامات أعزُّ من التوكل ، ومن يتوكل على الله ويسلمْ لقضائه ويفوض الأمر إليه ويرضَ بِقَدَرِهِ فقد أقام الدين ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان ، ومن أَحب أهل التوكل فقد أحب الله تعالى .

وأول التوكل المعرفة بالوكيل أنه هو العزيز الحكيم ، فإذا شهد العبد الذليلُ المَلِكَ الجليلَ قائما بالقسط والتدبير والتقدير ، وعنده خزائن السموات والأرض ، نظر العبد الذليل إلى سيده العزيز فقوي بنظره إليه ، وعزَّ به تعالى واستغنى بقربه عزّ وجلَّ ، فهناك حقت عبادته وخلص توحيده فعرف الخلقَ من معرفة خالقه ، وطلب الرزق عند معبوده ، ولم يحمد خَلْقا ولم يَذُمَّه ، ولم يمدحه لأجل أنه منعه أو أنه أعطاه ، لأنه عرف أن الله هو الولي المعطي ولم يشكر الخلق إلا لأن مولاه أمره بالشكر له ، تخلُّقا بأخلاقه تعالى واتباعا لسنة رسوله ﷺ .

وعليك بالزهد في الدنيا والتوكل على الله ، فإن الزهد أصلٌ في الاعمال والتوكل رأس في الأحوال ، واشهد بالله واعتصم بالله في الأقوال والأفعال والأخلاق والاحوال ، ومن يعتصم بالله فقد هُدِيَ إلى صراط مستقيم ، وإيَّاك

(١) لأن الطمّاع لو توكّل على الله تعالى وعلم أن خزائن الله ملأى لا تنفد مهما أعطى غيره ؛ لما طمع في أخذ ما ليس له ، فعند الله تعالى ما يكفي الجميع .

والشكَّ والشركَ والطمعَ والاعتراضَ على الله في شيء ، واعبد الله على القرب الأعظم تحظ بالمحبة والاصطفائية والتخصيص والتولية من الله والله ولي المتقين

وسأل الشعراني ﵁ شيخه علياً الخواص ﵁ عن ادخار القوت هل هو محمود ، لاطمئنان الجزء الذي فينا يحمل هَمَّ المعيشة ؟ فقال : ليس للفقير أن يدَّخر قوتا إلا إن كان على بصيرة بأنه قوته وحده ليس لغيره فيه نصيب ، وإلا فليس له أن يدخر ، لأن الحامل على ذلك إنما هو شح الطبيعة ، فقال الشعراني ﵁ : فإن علم أن ذلك قوت عياله لا يصل إليهم إلا على يديه فهل يدخر ؟ قال : نعم ، فقال : فإن علم أنه رزقهم ولكن لم يطلعه الحق أنه يأتيهم على يديه ، فقال : لا ، فقال : فإن أطْلعه الحق أن ذلك لا يصل إليهم إلا على يديه لكن في زمان معين لم يأت ؟ فقال : هو بالخيار إن شاء أمسكه على ذلك الوقت وإن شاء أخرجه عن يده ، فإنما هو حارس .

وسأله عن حج بعض الفقراء كل سنة من غير زاد ولا راحلة هل هو محمود أم مذموم ؟ فقال : هو مذموم ؛ لأن الله تعالى فرض الاستطاعة في الحج خوفا من تَحَمُّل مِنَن الناس في الطريق ووقوعه في الحقد والكراهة لكل من لم يُطْعمه ولم يُرْكبه فهذا أمر لازم ، ومنقولٌ عن السلف ، وأما من يَسْلِق الناسَ بألسنة حِداد[1] فسفره حرام .

وسأله : هل أعمل لي حرفة آكل منها ؟ فقال : لا تختر مع الله تعالى شيئا ، إلا مع استئذانه ، وإذنه لك ، فإن رزق العبد في طلب مرزوقه دائر والعبد في طلب رزقه حائر وبسكون أحدهما يتحرك الآخر ، فلا يقال السعي أفضل مطلقا ولا يقال ترك السعي أفضل مطلقا ، بل هو على قسمين :

(١) يَسْلِق الناسَ بألسنةٍ حِداد أي : يبالغ في إذايتهم بلسانه .

١ . رزقٌ يأتي إليك بلا سعي[1] فلا يقال في هذا السعيُ أفضل .

٢ . ورزقٌ لابدّ في وصولك إليه من السعي فلا يقال لو ترك هذا السعيَ كان أفضلَ . فافهم .

الفصل السابع والثلاثون : حسن الظن بالله تعالى

اعلم يا أخي أن حسن الظن بالله تعالى هو مَحَطُّ رحال الأولين والآخرين ، فقد قال الله تعالى في الحديث القدسي : « أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيرا » وفي رواية : « فليظن بي ما أحب » ، فالعاقل من أحسن ظنه بربه في كل نفس من أنفاسه ، إن ظننت أنه لا يضيعك في الدنيا ولا يكلك إلى نفسك طرفة عين فعل ، وإن ظننت أنه تعالى يوفي عنك حقوق العباد ولا يؤاخذك بحقوقه فعل ، وإن ظننت أنه تعالى يميتك على التوحيد فعل ، وإن ظننت به أنه لا يشهدك أهوال يوم القيامة فعل ، وإن ظننت أنه لا يحاسبك ولا يسألك عن شيء فعل ، وإن ظننت أنه يثبت قدميك على الصراط فعل ، وإن ظننت أنه يدخلك الجنة فعل .

الفصل الثامن والثلاثون : الصبر على أذى الأهل[2]

اعلم يا بني أن عادة الصالحين هي الصبر على أهاليهم واحتمال الإيذاء منهن ، وقد روي عنهم في ذلك الكثير ، منه ما روي أنه كان للشيخ أحمد الرفاعي ﷺ امْرأة بذيّة اللسان[3] تسفه عليه وتُؤْذيه ، فدخل عليْه الذي رآه في مقعَد صدْق يوْماً ، فوَجَد بيد امرأته محرَاكَ التنُّور وهي تَضْربُهُ بِهِ على أكتافه فاسودَّ ثوبهُ وهو ساكتٌ ، فانزعج الرجل وخرج من عنده فاجتمع بأصحاب الشيخ وقال : يا قوم ، يجري على الشيخ من هذه المرأة هَذا ، وأنتم

---

(١) كالإرْث مثلاً
(٢) الأهل هي الزوجة
(٣) بذية اللسان أي بذيئة اللسان وهي التي تسيء بلسانها

سُكوتٌ ؟فقال بعضهم : مَهْرُهَا خمسمائة دينار وهو فقيرٌ ، فمضى الرجل وجمَعَ الخمسَمائة دينار وجاء بهَا إلى الشيخ في صينيّة(٤) ، فوضعَهَا بين يَدَيْه ، فقال له : ما هَذا ؟ فقال : مَهْرُ هذه الشقيَّة التي فعَلتْ بك كذا وكذا ، فتَبسَّمَ وقال : لو لا صَبْري على ضَرْبهَا ولسانهَا مَا رَأيْتَني في مَقْعَد صدْق .

وحين أراد أحد الصالحين تطليق أهله ، فقيل له : ما يسوءك منها ؟ قال : العاقل لا يهتك ستر أهله ، فلما طلقها قيل له : لمَ طلقتها ؟ قال : ما لي وللكلام فيمن صارت أجنبية منِّي .

فأوصيكم يا أولادي بأهاليكم خيراً ، حَسِّنوا خُلُقَكم معهن ، وَلينوا لهن ، وانبسطوا معهن ، وإن الناس يعيبون على أمثالنا بأيسر الأشياء وأقلِّها ، ويرون قليلَ عيبنا كثيراً ، ويعدُّون صغيرَ عملنا كبيراً ، الأمان الأمان ، الحذر الحذر ممَّا يلومه الناس قولاً وفعلاً ، فكونوا راضين أنيسين مؤنسين لقريناتكم ، جعل الله عقبى جمعكم إلى خير .

واعلموا أنَّا إذا أكثرنا القول مع أهالينا وأسأنا الكلام معهنَّ ، فإنهنَّ ولا ريب لا يتأدّبن معَنا ولا يحتَرِمْنَنَا ، والغالب عليهن أنهنَّ لا يَفْرَغن لخدمتنا لكثرة أشغالهنّ(٥) فسامحوا وتجاوزوا واعفوا ، وعِظوا وانصَحوا بلطف ورفق ، دون عنف ! فما فَعَلْن يكفينا .

والحمد لله رب العالمين

تمّ الفراغ منه في شهر الله المحرَّم لعام ١٤٣٦ للهجرة المباركة

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم

---

(٤) الصينية هي طبق تُقَدَّم عليه أواني الطعام

(٥) إشارة إلى وجوب التماس العذر للمُقَصِّرات من الزوجات

الفهرس